أصول تفسير القرآن الكريم السننية: الواقع والآفاق

إعداد

د. أحمد حسن فرحات

جامعة قطر

قطر

المؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه

بسم الله الرحمن الرحيم

يعتبر **تفسير المنار من أوائل التفاسير التي احتفلت بالسنن الإلهية احتفالا كبيرا**، سواء أكانت سننا اجتماعية، أو تاريخية، أو كونية، أوغيرذلك- من السنن الكثيرة- التي سيأتي ذكرها في ثنايا هذا البحث.

وقد أشار صاحب المنار إلى ذلك في مقدمة تفسيره حيث قال:

لِلتَّفْسِيرِ مَرَاتِبُ أَدْنَاهَا: أَنْ يُبَيِّنَ بِالْإِجْمَالِ مَا يُشْرِبُ الْقَلْبَ عَظَمَةَ اللهِ وَتَنْزِيهَهُ، وَيَصْرِفُ النَّفْسَ عَنِ الشَّرِّ وَيَجْذِبُهَا إِلَى الْخَيْرِ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي قُلْنَا إِنَّهَا مُتَيَسِّرَةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: 17]

ثم يتحدث عن الْمَرْتَبَةُ الْعُلْيَا التي لَا تَتِمُّ إِلَّا بِأُمُورٍ:

-أَحَدُهَا: فَهْمُ حَقَائِقِ الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ، الَّتِي أُودِعَهَا الْقُرْآنُ: بِحَيْثُ يُحَقِّقُ الْمُفَسِّرُ ذَلِكَ مِنَ اسْتِعْمَالَاتِ أَهْلِ اللُّغَةِ، غَيْرَ مُكْتَفٍ بِقَوْلِ فُلَانٍ وَفَهْمِ فُلَانٍ. فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَلْفَاظِ كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِي زَمَنِ التَّنْزِيلِ لِمَعَانٍ. ثُمَّ غَلَبَتْ عَلَى غَيْرِهَا بَعْدَ ذَلِكَ بِزَمَنٍ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ...

-ثَانِيهَا: الْأَسَالِيبُ: فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِهَا مَا يَفْهَمُ بِهِ هَذِهِ الْأَسَالِيبَ الرَّفِيعَةَ. وَذَلِكَ يَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ، وَمُزَاوَلَتِهِ، مَعَ التَّفَطُّنِ لِنُكَتِهِ وَمَحَاسِنِهِ، وَالْعِنَايَةِ بِالْوُقُوفِ عَلَى مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ مِنْهُ...

-ثَالِثُهَا: عِلْمُ أَحْوَالِ الْبَشَرِ: فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ هَذَا الْكِتَابَ وَجَعَلَهُ آخِرَ الْكُتُبِ، وَبَيَّنَ فِيهِ مَا لَمْ يُبَيِّنْهُ فِي غَيْرِهِ. بَيَّنَ فِيهِ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ الْخَلْقِ وَطَبَائِعِهِمْ، وَالسُّنَنَ الْإِلَهِيَّةَ فِي الْبَشَرِ، قَصَّ عَلَيْنَا أَحْسَنَ الْقَصَصِ، عَنِ الْأُمَمِ وَسِيَرِهَا الْمُوَافَقَةِ لِسُنَّتِهِ فِيهَا. فَلَا بُدَّ لِلنَّاظِرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنَ النَّظَرِ فِي أَحْوَالِ الْبَشَرِ، فِي أَطْوَارِهِمْ وَأَدْوَارِهِمْ، ومناشئ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ، مِنْ قُوَّةٍ، وَضَعْفٍ، وَعِزٍّ، وَذُلٍّ، وَعِلْمٍ، وَجَهْلٍ، وَإِيمَانٍ، وَكُفْرٍ. وَمِنَ الْعِلْمِ بِأَحْوَالِ الْعَالَمِ الْكَبِيرِ: عُلْوِيِّهِ، وَسُفْلِيِّهِ، وَيُحْتَاجُ فِي هَذَا إِلَى فُنُونٍ كَثِيرَةٍ، مِنْ أَهَمِّهَا: التَّارِيخُ بِأَنْوَاعِهِ.

ثم يستشهد بقول أستاذه- محمد عبده- تأكيدا لهذا الاتجاه فيقول: الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: أَنَا لَا أَعْقِلُ كَيْفَ يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُفَسِّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[البقرة:123]

قَالَ: وَهُوَ لَا يَعْرِفُ أَحْوَالَ الْبَشَرِ، وَكَيْفَ اتَّحَدُوا، وَكَيْفَ تَفَرَّقُوا ؟ وَمَا مَعْنَى تِلْكَ الْوَاحِدَةِ، الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ وَهَلْ كَانَتْ نَافِعَةً، أَمْ ضَارَّةً ؟ وَمَاذَا كَانَ مِنْ آثَارِ بَعْثِهِ النَّبِيِّينَ فِيهِمْ؟

أَجْمَلَ الْقُرْآنُ الْكَلَامَ عَنِ الْأُمَمِ، وَعَنِ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ، وَعَنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِي الْآفَاقِ وَالْأَنْفُسِ، وَهُوَ إِجْمَالٌ صَادِرٌ عَمَّنْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَمَرَنَا بِالنَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ، وَالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ لِنَفْهَمَ إِجْمَالَهُ بِالتَّفْصِيلِ، الَّذِي يَزِيدُنَا ارْتِقَاءً، وَكَمَالًا. وَلَوِ اكْتَفَيْنَا مِنْ عِلْمِ الْكَوْنِ بِنَظْرَةٍ فِي ظَاهِرِهِ، لَكُنَّا كَمَنْ يَعْتَبِرُ الْكِتَابَ بِلَوْنِ جِلْدِهِ، لَا بِمَا حَوَاه، مِنْ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ.

ثم ينتقل–صاحب المنار– إلى الحديث عن الأمر الرابع، فيقول:

– **رَابِعُهَا**: الْعِلْمُ بِوَجْهِ هِدَايَةِ الْبَشَرِ كُلِّهِمْ بِالْقُرْآنِ:

فَيَجِبُ عَلَى الْمُفَسِّرِ– الْقَائِمِ بِهَذَا الْفَرْضِ ا لْكِفَائِيِّ– أَنْ يَعْلَمَ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّاسُ فِي عَصْرِ النُّبُوَّةِ، مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يُنَادِي: بِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ كَانُوا فِي شَقَاءٍ، وَضَلَالٍ. وَأَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بُعِثَ بِهِ، لِهِدَايَتِهِمْ وَإِسْعَادِهِمْ. وَكَيْفَ يَفْهَمُ الْمُفَسِّرُ مَا قَبَّحَتْهُ الْآيَاتُ، مِنْ عَوَائِدِهِمْ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ، أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْهَا، إِذَا لَمْ يَكُنْ عَارِفًا بِأَحْوَالِهِمْ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ ؟

ثم يوجه نقده إلى علماء القرآن–على تقليدهم– فيقول:

هَلْ يَكْتَفِي مِنْ عُلَمَاءِ الْقُرْآنِ– دُعَاةِ الدِّينِ، وَالْمُنَاضِلِينَ عَنْهُ– بِالتَّقْلِيدِ– بِأَنْ يَقُولُوا تَقْلِيدًا لِغَيْرِهِمْ–:

إِنَّ النَّاسَ كَانُوا عَلَى بَاطِلٍ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ دَحَضَ أَبَاطِيلَهُمْ، فِي الْجُمْلَةِ ؟ كَلَّا.

وَأَقُولُ الْآنَ–أي محمد رشيد رضا–: يُرْوَى عَنْ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّمَا ينقض عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْجَاهِلِيَّةَ ".

وَالْمُرَادُ أَنَّ مَنْ نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَعْرِفْ حَالَ النَّاسِ قَبْلَهُ، يَجْهَلُ تَأْثِيرَ هِدَايَتِهِ، وَعِنَايَةَ اللهِ، بِجَعْلِهِ مُغَيِّرًا لِأَحْوَالِ الْبَشَرِ، وَمُخْرِجًا لَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَمَنْ جَهِلَ هَذَا: يَظُنُّ أَنَّ الْإِسْلَامَ أَمْرٌ عَادِيٌّ – كَمَا تَرَى بَعْضَ الَّذِينَ يَتَرَبَّوْنَ فِي النَّظَافَةِ، وَالنَّعِيمِ،– يَعُدُّونَ التَّشْدِيدَ فِي الْأَمْرِ بِالنَّظَافَةِ وَالسِّوَاكِ، مِنْ قَبِيلِ اللَّغْوِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الْحَيَاةِ عِنْدَهُمْ. وَلَوِ اخْتَبَرُوا غَيْرَهُمْ مِنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ: لَعَرَفُوا الْحِكْمَةَ فِي تِلْكَ الْأُمُورِ، وَتَأْثِيرَ تِلْكَ الْآدَابِ مِنْ أَيْنَ جَاءَ ؟

– **خَامِسُهَا**: الْعِلْمُ بِسِيرَةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابِهِ: وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ وَتَصَرُّفٍ فِي الشُّئُونِ دُنْيَوِيِّهَا، وَأُخْرَوِيِّهَا... [1]

(1) – تفسير المنار: 1/19–21.

وهكذا نرى أن-**رشيد رضا، وأستاذه محمد عبده**- يعتبران ما جاء في فقرة: "وثالثها" من علم أحوال البشر، والسنن الإلهية" شرطا لابد منه، لمن يتصدى للتفسير. ومثل هذا الشرط: لا نجده في الكتب المتقدمة، التي تناولت أصول التفسير، أو شروط المفسر. غير أن هذا لا يعني: أن السابقين: لم يشيروا إلى أهمية السنن إطلاقا، ففي كتاب – **الفتاوى - لابن تيمية**: إشارات واضحة، إلى هذه السنن.

بل إن **ابن تيمية أفرد إحدى رسائله من كتابه "جامع الرسائل" لبيان المراد بسنة الله**، وقد عرض فيها لجميع الآيات، التي اشتملت على"سنة الله".

ونحن مضطرون في هذا البحث: أن نعتمد على ما جاء-**عند صاحب المنار**-باعتبار سبقه في الإشارة إلى السنن، وتوسعه في تعدادها، وشرح تفاصيلها-**دون التفاسير القديمة**- التي أهملت هذا الجانب، ولم تعره الأهمية المطلوبة.

كما أننا سنعتمد أيضا على ما جاء –**عند صاحب الظلال**-نظرا لما عنده، من تصور واضح، في موضوع السنن، وملاحظات، واستدراكات، وتحفظات-**باعتباره جاء بعد تفسير المنار**-. كما سنستفيد أيضا مما جاء **عند عبد الحميد الفراهي– الهندي**- في تحقيقاته، ودراساته القرآنية.

مدخل إلى موضوع السنن الإلهية:

سبق لي أن كتبت بحثا بعنوان: "**سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول**". ولعل من المناسب- هنا- أن أقدم تلخيصا لما جاء فيه، ليكون بمثابة مدخل إلى البحث الذي نحن بصدده:

إن " **سنة الله** "-كما وردت في القرآن الكريم-:

هي طريق عامة، يجري بها أمره في عباده [1]- وهي طريق العدل، والرحمة –[2].

وقد تكون شرعية. كما تكون كونية، تاريخية.

وإن " سنة الله " الشرعية: تتمثل في فروع الشرائع المختلفة الصور، المتحدة القصد، والهادفة إلى تطهير النفس، وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى، وجواره [3].

وإن " سنة الله " الكونية- في استعمال القرآن- تكاد تكون موقوفة الاستعمال على سنن التاريخ، المبنية على سنن الاجتماع. ذلك أن التاريخ: هو حصيلة التجارب الإنسانية الطويلة، ومختبر الباحثين

(1) - المفردات للفراهي:45.

(2) - القائد إلى عيون العقائد: 165.

(3) - المفردات للراغب:429.

والمحللين، الساعين دائماً لاستفادة الدروس والعبر، واكتشاف السنن، التي تحكم سير الأمم في تطورها. وإن هذا الاكتشاف يمكن أن يوظف لتوجيه الأحداث الحاضرة، والمستقبلية. فيوفر على الإنسان كثيراً من الجهود التي يمكن أن تضيع سدى.

وقد وردت" سنة الله" بهذا المعنى في كثير من الآيات القرآنية.

ومن سنن التاريخ التي حظيت بعناية خاصة: " سنن الأنبياء" والمتابعين لهم من أهل الإيمان، ذلك أن فترات الأنبياء التاريخية، تمثل الذرى، والقمم، التي جعلها الله مثلاً أعلى، تتطلع البشرية دائما وأبدا للاهتداء به. واقتفاء آثاره.

سنة الاستفزاز:

ومن سنة الله في أنبيائه ورسله: أن يعرضهم لاستفزاز أقوامهم، فيحاولون قتلهم. ولكنهم لا يلبثون بعد المحاولة إلا قليلاً، حتى يأخذهم سبحانه أخذ عزيز مقتدر.

وعند ما عجز المشركون عن استدراج الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى هذه الفتنة حاولوا استفزازه من الأرض- أي مكة- ولكن الله أوحى إليه أن يخرج هو مهاجرا، لما سبق في علمه من عدم إهلاك قريش بالإبادة. ولو أخرجوا الرسول- صلى الله عليه وسلم- عنوة وقسرا لحل بهم الهلاك: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾[الإسراء: 76].

فهذه هي سنة الله النافذة: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: 77].

ولقد جعل الله هذه سنة جارية لا تتحول، لأن إخراج الرسل كبيرة تستحق التأديب الحاسم. وهذا الكون تصرفه سنن مطردة، لا تتحول أمام اعتبار فردي. وليست المصادفات العابرة، هي السائدة في هذا الكون، إنما هي السنن المطردة الثابتة. فلما لم يرد الله أن يأخذ قريشا بعذاب الإبادة -كما أخذ المكذبين من قبل، لحكمة علوية- لم يرسل الرسول ﷺ بالخوارق، ولم يقدر أن يخرجوه عنوة، بل أوحى إليه بالهجرة. ومضت سنة الله في طريقها لا تتحول..

ومن السنن التاريخية التي تكرر ورودها في القرآن:

سنة الله في إهلاك المكذبين:

وقد قص الله علينا قصصهم لنعتبر بها، ولما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه، ومصلحتنا. وإنما يكون الاعتبار: إذا قسنا الثاني بالأول – وكانا مشتركين في المقتضي للحكم – فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل – فرعون ومن قبله – لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار، بما لا نشبهه قط [1].

ومن السنن التاريخية التي تكرر ورودها في القرآن:

سنة الله في نصر أوليائه على أعدائه.

وهي شاملة لأعدائه من المشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين [2].

ولقد اقترنت سنة الله – الكونية التاريخية – بما يفيد ثباتها من مثل قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ٤٣﴾ [فاطر: ٤٣].

علما بأن صيغة " سنة الله " لم تستعمل في القرآن، إلا في مجال الاجتماع، والتاريخ.

غير أن بعض الكتاب توسعوا في مفهوم " سنة الله " لتشمل قوانين الكون، وطبائع الخلق. ومن ثم فقد جعلوا: قوانين الكون، وطبائع الخلق، مشمولة بالثبات، وعدم التبديل والتحويل، الواردين خاصة مع صيغة "سنة الله " الواردة في مجال الاجتماع والتاريخ.

ويرى العلامة عبد الحميد الفراهي الهندي: أن أول من استعمل صيغة " سنة الله " بالمعنى الشامل لطبائع الخلق كلها: هم أصحاب رسائل " إخوان الصفا". ثم تابعهم على ذلك ولي الدين الدهلوي صاحب كتاب " حجة الله البالغة " [3].

كما يذكر ابن تيمية [4] – أن السهروردي المقتول–: ذهب إلى أن العالم: لا يتغير. بل لا تزال الشمس تطلع وتغرب، لأنها عادة الله. وأنه احتج على ذلك بالآيات السابقة، التي تنص على أن " سنة الله" غير قابلة للتغيير والتبديل.

وقد علل الفراهي: ما ذهب إليه القائلون بأن طبائع الخلق من" سنة الله"، وأنها ثابتة، بعدة ظنون:

– فقد ظنوا أن التبديل في الخلق محال، لقوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾[الروم: ٣٠].

(1) – الفتاوى لابن تيمية، 14 /321 وما بعدها.

(2) – جامع الرسائل لابن تيمية: 51 –بشيء من التصرف–.

(3) – ينظر حجة الله البالغة: 1 /11، طبعة دار المعرفة.

(4) – راجع كلام ابن تيمية في جامع الرسائل:52، والرد على المنطقيين:390–391، وبراجع كلام الفراهي في القائد إلى عيون العقائد: 165.

- وظنوا أن قوله ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾، كقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: ٦٢].

- وظنوا أن طبائع الخلق كلها: تدخل تحت " سنة الله ".

-وظنوا أن طبائع الخلق ثابتة، لما علموا من التجربة: أن الأشياء لا تتحول عن آثارها.

وقد رد الفراهي هذه الظنون واحدة، واحدة —كما سبق شرحه وبيانه —.

وأما ابن تيمية: فقد عرض لاحتجاج السهروردي المقتول، وأمثاله من المتفلسفة، بآيات السنن على صحة ما ذهبوا إليه، من اعتبار العادات الطبيعية: من سنن الله الثابتة، وأبطل مزاعمهم [1].

واعتبر احتجاجهم بالقرآن نوعاً من تحريف الكلم عن مواضعه، وأن القرآن يصرح بنقيض مذهبهم في جميع المواضع[2].

أما علماؤنا- المحدثون، والمعاصرون-: فقد مال معظمهم إلى تعميم صيغة " سنة الله "، بحيث تكون شاملة لسنن التاريخ، وقوانين الكون، كما أنهم قالوا بثبات السنن، وترتب النتائج على الأسباب، غير أن تعبيرهم عن هذه الحقيقة لم يكن متساوياً. بل إن بعضهم كانت له تحفظاته، التي تشير إلى ملاحظات خاصة، أو استثناءات.

ومن ثم نرى أنه من المناسب الإشارة: إلى شيء من هذه التحفظات، حسبما وردت في أقوالهم:

من القائلين بتوسيع مفهوم السنن الإلهية، وشمولها وثباتها دون تحفظات: محمد رشيد رضا، وذلك في تفسيره " المنار": حيث يكثر من ذكر السنن-دون تفريق بين سنن الاجتماع والتاريخ، أو قوانين الكون، وطبائع الخلق-.

أما سيد قطب: فإنه- وإن كان يستعمل صيغة " سنة الله " بالمعنى الشامل- فإنه يتحفظ على آلية السنن، وحتميتها، بما يتناسب مع طلاقة المشيئة الإلهية، حيث يقول:

" فليست هناك جبرية آلية، في الخلق، والإنشاء. ولا في الحركة، والحدث. والنواميس التي يراها الناس مطردة في الكون — بوجه عام — ليست قوانين آلية، أنشأها الله، وسلطها لتعمل بذاتها آلياً، وحتمياً. ولكنها تطرد على الجملة، لأن قدر الله في شأنها يطرد، في غير جبرية آلية فيها، وفي غير حتمية — على الله سبحانه — في اطرادها. إنما هي مشيئته وحكمته بهذا. فيجري قدره بما يشاء. وهكذا تقع المعجزات الخارقة، لما يسمى بالقوانين الطبيعية" [3].

(1) - جامع الرسائل:53-54.

(2) - جامع الرسائل:53-54.

(3) - مقومات التصور الإسلامي لسيد قطب:62-63.

أما الأستاذ محمد قطب: فإنه يفرق في التسمية، بين نوعين من السنن:

- **الإلهية**: وهي التي تحكم الحياة البشرية.

- **والكونية**: وهي القوانين الطبيعية، التي تحكم المادة.

وأن الانتظام، والانضباط: موجود في كلا النوعين، بمرتبة واحدة[1].

لكنه يرى: أن القوانين قد يخرقها الله، لحكمة يريدها. وكأنه بذلك يريد تفسير الخوارق، والمعجزات.

أما السنن الإلهية التي تحكم الحياة البشرية: فقد ثبتها الله، ومن ثم، فلا تخضع لهذا الاستثناء[2].

وكذلك يرى الأستاذ محمد قطب: أن هناك سنناً جارية مطردة، خاصة بالمؤمنين. وسننا جارية خاصة بالكافرين. ولكنها أقل في مساحتها من السنن العامة، التي تجري على الجنس البشري، بمؤمنيه، وكافريه[3].

غير أن السنة الثابتة التي لا تتغير، ولا تتبدل ولا تتحول: هي سنن التاريخ، والاجتماع. ومنها "سنة الله في نصر أوليائه، وخذلان أعدائه".

وهذه الحقيقة- بالنسبة لهذه السنة-: موضع اتفاق وإجماع، عند من تكلموا في هذا الموضوع- من المتقدمين، والمتأخرين-.

أما سنن الكون، وطبائع الخلق: فإن الذين جعلوها مشمولة بـ " سنة الله " التي لا تتبدل ولا تتحول - "سنة التاريخ، والاجتماع - فقد قالوا بلزومها وثباتها، لانضوائها تحت اللازم الثابت.

غير أن بعضهم: اضطر إلى تقييد ذلك، بطلاقة المشيئة الإلهية، ليفسر الاستثناء، الذي يخرق السنن الكونية، كالمعجزات.

وربما اضطر البعض الآخر: إلى التعسف في التأويل، أو إنكار المعجزات، ليستقيم له ما ذهب إليه من اللزوم.

وربما يرى آخرون: أن التغيير والتبديل، الخارق للسنة: دليل على أن السنة لم تتحقق، لفقد شرط، أو لوجود مانع. ومن ثم فلم تكن سنة- لفوات الشرط، أو وجود المانع-. كما أن هناك من يرى: أن مثل هذه السنن، تفيد العموم، ولا تفيد اللزوم[4].

ومما يساعد على فهم" سنة الله الاجتماعية، والتاريخية"- والتي يكون الإنسان عاملا إيجابياً فيها-: ملاحظة الفرق بين الإنسان الفطري- كما خلقه الله-، والإنسان المسلم المنضبط بشريعة الله، والذي تخضعه

(1) - حول التفسير الإسلامي للتاريخ لمحمد قطب:120.

(2) - المصدر السابق:120.

(3) - المصدر السابق:120.

(4) - انظر الفلسفة القرآنية للعقاد ضمن المجموعة الكاملة / مج 7 / الإسلاميات 3 /ص24.

العقيدة الإسلامية إلى عملية شرطية، من شأنها الحد من طغيان الغرائز وتنظيمها. وفي هذه الحالة: يتحرر المسلم جزئياً من القانون الطبيعي، ويتجه بالفائض من قوة الغرائز المنضبطة: تجاه القيم الخلقية، والمثل العليا. والتي تجعل لحياة المسلم هدفاً ومعنى، تهون في سبيله التضحيات، ويغدو المسلم بفضلها: قوة تتجاوز المألوف، من قوة الإنسان الطبيعي. وقد شرحنا هذه الفكرة فيما تقدم، تحت عنوان " سنن الإنسان..وسنن الإيمان "[1].

كذلك لا بد من الانتباه إلى أن الحياة البشرية: تخضع لسنن كثيرة، وهذه السنن تتحقق وتنفذ من خلال عمل الإنسان، طبقاً للسنة الإلهية العامة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[الرعد: ١١].

كما أن هذه السنن: تتزاحم في عملها وتتدافع، طبقاً لعمل الإنسان الذي يخضع أيضاً لعوامل، ودوافع مختلفة. ومن ثم يتحقق من هذه السنن: ما تكون له الغلبة على غيره، بناءً على العامل والدافع، الذي يتغلب في عمل الإنسان.

كذلك تكون الأقدار في حال تنازع، طبقاً لتدافع السنن. ثم يتحقق القدر المترتب على السنة الغالبة.

وهكذا فالسنن جارية لا تتخلف، وإنما يتغلب بعضها على بعض، بحسب القوة، والضعف.

وقد شرحنا هذه الفكرة فيما سبق، تحت عنوان " تدافع السنن وتنازع الأقدار "–[2].

وعلى الرغم من كل ماقيل في شأن السنن الكونية، من لزوم، أو عموم. فلا بد لنا من العمل على أساسها، ولا ينبغي لنا إهمالها بحجة عدم حتميتها، وبخاصة إذا علمنا أن المعجزات التي تخرق السنن الكونية: كانت استثناءً في حياة الناس، لإثبات النبوات، وأن النبوات قد انتهت بمجيء خاتم النبيين، مما يجعل مثل هذا الاستثناء، غير وارد حاضراً، ومستقبلاً. كما أن إهمال هذه السنن لن يؤدي إلا إلى الفوضى، وعدم الاستقرار. وإذا كان الإسلام يوجب العمل بغلبة الظن في الأحكام الشرعية، فمن باب أولى: أن يوجبه في السنن الكونية، التي قلنا بأنها تفيد العموم، ولا تفيد اللزوم.

السنة الإلهية–عند سيد قطب– شاملة للوجود كله:

يرى سيد قطب أن– شريعة اللّه للناس– هي طرف من قانونه الكلي، في الكون. فإنفاذ هذه الشريعة لا بد أن يكون له أثر إيجابي في التنسيق، بين سيرة الناس، وسيرة الكون.. والشريعة إن هي إلا ثمرة الإيمان، لا تقوم وحدها بغير أصلها الكبير. فهي موضوعة لتنفذ في مجتمع مسلم. كما أنها موضوعة لتساهم في بناء المجتمع المسلم. وهي متكاملة مع التصور الإسلامي كله للوجود الكبير، وللوجود الإنساني، ومع ما ينشئه

(1) – شروط النهضة، لمالك بن نبي: 101–201–بتصرف–.

(2) – سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول،للمؤلف: 51–58.

هذا التصور: من تقوى في الضمير، ونظافة في الشعور، وضخامة في الاهتمامات، ورفعة في الخلق، واستقامة في السلوك.

وهكذا يبدو التكامل، والتناسق بين سنن اللّه كلها، سواء ما نسميه: القوانين الطبيعية. وما نسميه القيم الإيمانية. فكلها أطراف من سنة اللّه الشاملة، لهذا الوجود.

ثم يشير سيد قطب إلى مكانة الإنسان وفاعليته في هذا الوجود فيقول:

والإنسان كذلك قوة من قوى الوجود. وعمله وإرادته، وإيمانه وصلاحه، وعبادته، ونشاطه.... هي كذلك قوى ذات آثار إيجابية، في هذا الوجود. وهي مرتبطة بسنة اللّه الشاملة، للوجود.. وكلها تعمل متناسقة، وتعطي ثمارها كاملة، حين تتجمع وتتناسق. بينما تفسد آثارها وتضطرب، وتفسد الحياة معها، وتنتشر الشقوة بين الناس والتعاسة، حين تفترق، وتتصادم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣]..

فالارتباط قائم وثيق بين عمل الإنسان، وشعوره. وبين مجريات الأحداث، في نطاق السنة الإلهية، الشاملة للجميع.

ولا يوحي بتمزيق هذا الارتباط، ولا يدعو إلى الإخلال بهذا التناسق، ولا يحول بين الناس وسنة اللّه الجارية، إلا عدو للبشرية، يطاردها دون الهدى. وينبغي لها أن تطارده، وتقصيه من طريقها، إلى ربها الكريم (1).

سنن الله تتعذر على الحصر:

إن ما أشرنا إليه من بعض السنن- فيما سبق- إنما قصد نا به: السنن المنصوص عليها بلفظ السنن. أما السنن التي تحكم الحياة البشرية، والتي وردت في القرآن بالمعنى، فأكثر من أن تحصى. وإن المتبع لما ورد في القران الكريم من السنن: يجد الشيء الكثير، الذي لا يمكن أن يتسع له مثل هذا البحث المحدود الصفحات، ويكفي أن نشير هنا إلى بعض هذه السنن إشارة سريعة:

سنة التدافع: المشار إليها بقول تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

سنة الابتلاء: كما في قول تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧﴾ [الكهف: ٧]. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢]. وقوله: ﴿الٓمٓ

(1) - من مقدمة في ظلال القرآن:17-18.

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ ﴾[العنكبوت: ١ - ٣].

سنة التمكين والاستخلاف: المشار إليها، بقوله تعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾[النور: ٥٥]. وبقوله تعالى:﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ ﴾ [القصص: ٥]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝ ﴾[الأنبياء: ١٠٥].

سنة التداول، ولاستبدال: والمشار إليها بقوله:

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١٤٠]. وقوله: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ۝ ﴾ [محمد: ٣٨].

كيف يمكننا معرفة السنن؟

يقول العلامة عبد الحميد الفراهي:

طرق استنباط القضايا الخبرية لسننه تعالى:

نعرف سنن الله بثلاث طرق:

أ- بلزومها لصفاته الكاملة من الحكمة, والرحمة والعدل والعلم.

ب_ بما فعل في الأمم الخالية، وأخبر بها في كتبه، وبلغنا بالتواتر، ونراها الآن.

ج-بما وعدنا في كتبه.

وهذه الطرق تجتمع في أمور كثيرة، فنوقن أنها من سنة الله

فمن "ج" قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ ﴾ [المائدة: ٦٦] [1].

(1) - في ملكوت الله للفراهي: 27-28.

وتحت عنوان "تذكرة" يقول الفراهي:

سنن الله المذكورة في القران:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ٥٨ -٥٩].

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٣ - ٤٥].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ -أي: في الدنيا-﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ -أي في توفية أعمالهم في الدنيا- ﴿لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود: ١٥].

ابتلاء المومنين خصوصا قال تعالى:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣] (1).

تفسير المنار... يكثر من تعداد السنن:

لقد أكثر تفسير المنار من تعداد السنن، وذلك في الخلاصة- التي جعلها خاتمة لسورة هود- تحت عنوان:

الْبَابُ السَّادِسُ:

- فِي سُنَنِ اللهِ - تَعَالَى - فِي التَّكْوِينِ وَالتَّقْدِيرِ وَالطَّبَائِعِ وَالْغَرَائِزِ وَالِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ وَفِيهِ ثَلَاثَةُ فَصُولٍ-:

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: فِي سُنَنِ التَّكْوِينِ وَالتَّقْدِيرِ. أَيْ: نِظَامُ الْخَلْقِ، وَفِيهِ أَنْوَاعٌ:

- سُنَّتُهُ - تَعَالَى - فِي رِزْقِ الْأَحْيَاءِ:

-النَّوْعُ الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]...يُشِيرُ إِلَى سُنَنٍ كَثِيرَةٍ، فَإِنَّ الرِّزْقَ الْمُضَافَ إِلَى ضَمِيرِ هَذِهِ الدَّوَابِّ الْكَثِيرَةِ عَامٌّ، يَشْمَلُ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً مِنْهَا... وَيَجْرِي ذَلِكَ بِسُنَنٍ كَثِيرَةٍ، وَضَعَ الْبَشَرُ لِتَفْصِيلِهَا عُلُومًا كَثِيرَةً، فِي النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ وَوَظَائِفِ أَعْضَاءِ التَّغَذِّي وَالْهَضْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

(1) - في ملكوت الله للفراهي: 67-27.

– سُنَنُهُ فِي مُسْتَقَرِّ الْأَحْيَاءِ وَمُسْتَوْدَعِهَا:

-(الثَّانِي) قَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]:

يَشْمَلُ سُنَنًا أُخْرَى كَثِيرَةً....ذلك أَنَّ تَعَدُّدَ أَنْوَاعِ الِاسْتِقْرَارِ، وَالِاسْتِيدَاعِ، وَأَمَاكِنِهَا، وَأَزْمَانِهَا، لِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الدَّوَابِّ فِي الْحَمْلِ بِهِ وَحَضَانَتِهِ وَوِلَادَتِهِ وَحَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ وَوَطَنِهِ وَتَنَقُّلِهِ، يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ لِكُلٍّ مِنْ ذَلِكَ سُنَنٌ فِي مُنْتَهَى الْحِكْمَةِ وَالنِّظَامِ...

–سُنَنُهُ فِي كِتَابَةِ نِظَامِ الْعَالَمِ وَمَقَادِيرِهِ:

-الثَّالِثُ: قَوْلُهُ – تَعَالَى –: ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [هود: ٦]

بَيَانٌ لِنَوْعٍ آخَرَ مِنَ النِّظَامِ، وَهُوَ نَوْعُ الْكِتَابَةِ الشَّامِلِ، لِمَا ذُكِرَ قَبْلَهُ مِنْ نَوْعِ تَعَلُّقِ الْعِلْمِ، وَمَا قَبْلَهُ مِنْ نَوْعِ تَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ، بِمَا وُجِدَ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ بِالْفِعْلِ. وَمِثَالُهُ الْمُقَرَّبُ لِتَصْوِيرِ حِكْمَتِهِ: تَدْوِينُ كِتَابِ دِيوَانِ الْحُكُومَةِ النِّظَامِيَّةِ لِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ أَعْيَانٍ وَأَمْوَالٍ، وَأَعْمَالٍ وَمَقَادِيرَ وَتَدْبِيرٍ...

فَالْوَحْيُ يُعَلِّمُنَا أَنَّ الْكَوْنَ الْأَعْظَمَ قَائِمٌ بِنِظَامٍ أَحَاطَ بِهِ عِلْمُ اللهِ – تَعَالَى – وَأَنَّ مَقَادِيرَهُ الَّتِي نَفَّذَتْ بِقُدْرَتِهِ – تَعَالَى —

– سُنَنُهُ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ:

– الرَّابِعُ: قَوْلُهُ – تَعَالَى –: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]:

فِيهِ مِنْ بَيَانِ سُنَّتِهِ – تَعَالَى – فِي التَّكْوِينِ: أَنَّهُ كَانَ أَطْوَارًا– فِي أَزْمِنَةٍ مُقَدَّرَةٍ، بِنِظَامٍ مُحْكَمٍ–. وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْهُ أُنُفًا —بِضَمَّتَيْنِ– أَيْ فُجَائِيًّا بِغَيْرِ تَقْدِيرٍ وَلَا تَرْتِيبٍ.....وَأَنَّ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ مَا فِيهَا مِنَ الْبَسَائِطِ، وَالْمُرَكَّبَاتِ الْغَازِيَّةِ، وَالسَّائِلَةِ، وَالْجَامِدَةِ، قَائِمٌ بِسُنَنٍ أَيْضًا. وَأَنَّ الْكَوْنَ فِي جُمْلَتِهِ قَائِمٌ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، فِي رَبْطِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ، وَحِفْظِ نِظَامِهِ أَنْ يَبْغِيَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ. كَالَّذِي يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ: نِظَامَ الْجَاذِبِيَّةِ الْعَامَّةِ. وَالْجَاذِبِيَّاتِ الْخَاصَّةِ.

– سُنَنُهُ فِي خَلْقِ الْأَحْيَاءِ مِنَ الْمَاءِ، وَخَلْقِ الْمُرَكَّبَاتِ أَزْوَاجًا:

– الْخَامِسُ: قَوْلُهُ – تَعَالَى – بَعْدَ ذِكْرِ هَذَا الْخَلْقِ:﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]:

فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ التَّكْوِينِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْأَحْيَاءِ، وَقَدْ كَتَبْنَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فَصْلًا فِي هَذَا التَّكْوِينِ – ذَكَرْنَا مِنْ سُنَنِهِ: سُنَّةَ الزَّوْجِيَّةِ فِي خَلْقِ جَمِيعِ الْمُرَكَّبَاتِ–...

وَقَدْ وَصَلَ عِلْمُ الْبَشَرِ فِي عَصْرِنَا إِلَى كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ السُّنَنِ، وَمَا قَامَتْ بِهِ، وَبِمَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْمَوَالِيدِ وَغَيْرِهَا...

-الْفَصْلُ الثَّانِي فِي سُنَنِ الطَّبَائِعِ وَالْغَرَائِزِ الْبَشَرِيَّةِ:

- وَفِيهِ بِضْعَةُ شَوَاهِدَ:

- سُنَّتُهُ - تَعَالَى - فِي اخْتِبَارِ الْبَشَرِ لِأَجْلِ إِحْسَانِ كُلِّ عَمَلٍ:

-الشَّاهِدُ الْأَوَّلُ: بَيَّنَ اللهُ - تَعَالَى - لَنَا بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ آنِفًا، مِنْ بَدْءِ الْخَلْقِ حِكْمَتَهُ الْعُظْمَى، فِيهِ لِلْبَشَرِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]: فَإِنَّ إِحْسَانَهُمْ لِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي أَعَدَّهُمْ لَهَا هِيَ الَّتِي تُظْهِرُ مَا فِي هَذَا الْخَلْقِ- عُلْوِيِّهِ، وَسُفْلِيِّهِ- مِنَ الْحِكَمِ وَالْأَسْرَارِ، الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا وَلَا نِهَايَةَ...

-غَرِيزَةُ النَّاسِ فِي الْعَجَلِ وَالِاسْتِعْجَالِ:

الشَّاهِدُ الثَّانِي: قَوْلُهُ - تَعَالَى - عَقِبَ ذَلِكَ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾[هود:٨]: يُرْشِدُنَا إِلَى سُنَّتَيْنِ مِنْ سُنَّتِهِ - تَعَالَى - فِي غَرَائِزِ الْبَشَرِ وَفِي اجْتِمَاعِهِمْ كَاللَّتَيْنِ فِيمَا قَبْلَهُ - نُرْجِئُ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْفَصْلِ الثَّالِثِ - وَنُبَيِّنُ الْأُولَى: بِأَنَّ مِنْ طِبَاعِهِمُ الْعَجَلَةَ، وَالِاسْتِعْجَالَ: لِمَا يَطْلُبُونَ مِنْ خَيْرٍ لِلتَّمَتُّعِ بِهِ، وَمَا يُنْذَرُونَ مِنْ شَرٍّ يُنْكِرُونَهُ، لِلِاحْتِجَاجِ عَلَى بُطْلَانِهِ.....

- غَرِيزَةُ الْفَرَحِ بِالنِّعْمَةِ، وَالْيَأْسِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ:

- **الشَّاهِدَانِ: الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ** فِي الْآيَتَيْنِ- 9 -10: هود: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ بَيَانٌ لِغَرِيزَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ - بَيَّنَّاهُمَا فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ- مِنَ الْبَابِ الْخَامِسِ مِنَ الْوَجْهِ الْبَشَرِيِّ وَهُمَا: فَرَحُ الْبَطَرِ بِالنِّعْمَةِ، وَيَأْسُ الْكُفْرِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ. وَنُذَكِّرُ بِهِمَا- هُنَا- مِنْ وَجْهِ النِّظَامِ الْإِلَهِيِّ، وَالسُّنَنِ الْعَامَّةِ.

-وَمِنْ دَقَائِقِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْآيِ: وُرُودُ هَذِهِ السُّنَنِ، مُتَعَاقِبَةً مُتَّصِلَةً-.

-غَرِيزَةُ الْإِفْرَاطِ فِي تَوْجِيهِ الْقُوَى إِلَى شَيْءٍ يَلْزَمُهُ ضَعْفٌ ضِدُّهُ:

-**الشَّاهِدُ الْخَامِسُ:** قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥]: فِيهِ شَاهِدٌ عَلَى سُنَّةِ الْعَجَلِ فِي غَرَائِزِ الْبَشَرِ، الْمُبَيَّنَةِ فِي الشَّاهِدِ الثَّانِي آنِفًا. وَشَاهِدٌ عَلَى سُنَّةٍ أُخْرَى: هِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا وَجَّهَ إِرَادَتَهُ بِكُلِّ قُوَّتِهَا إِلَى مَا فِيهِ مَتَاعٌ لَهُ، مِنَ اللَّذَّةِ وَالْمَنْفَعَةِ الْعَاجِلَةِ. عَسُرَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْقِلَ مَا يُنْذَرُ بِهِ مِنَ الضَّرَرِ الْآجِلِ، الَّذِي يَعْقُبُهُ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يُنْذَرُ بِهِ مِمَّا لَا يُؤْمِنُ بِهِ، مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ يَكُونُ فِقْهُهُ لَهُ أَعْسَرُ، وَاقْتِنَاعُهُ بِهِ أَبْعَدُ، إِلَّا أَنْ يَهْدِيَهُ اللهُ لِلْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ، إِيمَانًا يَشْتَرِكُ فِيهِ الْعَقْلُ وَالْوِجْدَانُ.

- فَقْدُ هِدَايَةِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ:

الشَّاهِدُ السَّادِسُ: قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود: ٢٠]: فِي مَعْنَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ سُنَّتِهِ - تَعَالَى - فِي تَوْجِيهِ الْإِنْسَانِ كُلَّ إِرَادَتِهِ إِلَى شَيْءٍ يُضْعِفُ فِيهِ غَرِيزَةَ الْإِرَادَةِ لِمَا يُخَالِفُهُ، وَنُزِيدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ يَضْعِفُ هِدَايَةَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، حَتَّى يَفْقِدَ الْقُدْرَةَ عَلَى الِاهْتِدَاءِ بِهِمَا وَالِانْتِفَاعِ بِدَلَائِلِهِمَا، فَهِيَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ سُنَّةٌ أُخْرَى.

-الْإِيمَانُ بِالْإِقْنَاعِ دُونَ الْإِكْرَاهِ، وَاسْتِعْدَادُ الْبَشَرِ لِلْإِضْلَالِ:

الشَّاهِدُ السَّابِعُ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: الْآيَةُ 28] حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي شَأْنِ مَا آتَاهُ اللهُ مِنَ الْبَيِّنَةِ، عَلَى صِحَّةِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ، إِذَا عُمِّيَتْ عَلَيْهِمْ، أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُلْزِمَهُمْ إِيَّاهَا وَهُمْ كَارِهُونَ لَهَا، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ:

سُنَّتَهُ -فِي الْبَشَرِ-: أَنَّ الْإِيمَانَ، لَا يَكُونُ بِالْإِلْزَامِ...

-سُنَنُهُ فِي ضَلَالِ النَّاسِ وَغَوَايَتِهِمْ:

-الشَّاهِدُ الثَّامِنُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي حِكَايَةِ عَنْهُ، فِي مُجَادَلَةِ قَوْمِهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]:

وَفِيهِ بَيَانٌ لِسُنَّتِهِ - تَعَالَى - فِي غَوَايَةِ الْغَاوِينَ، وَكُفْرِ الْكَافِرِينَ، وَضَلَالِ الضَّالِّينَ.....

وَخُلَاصَتُهَا: أَنَّ الْإِغْوَاءَ، وَالْإِضْلَالَ: عِبَارَةٌ عَنْ وُقُوعِ الْغَوَايَةِ، وَالضَّلَالِ بِسُنَّةِ اللهِ، فِي تَأْثِيرِ ارْتِكَابِ أَسْبَابِهِمَا، مِنَ الْأَعْمَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ، وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهَا، إِلَى أَنْ تَتَمَكَّنَ مِنْ صَاحِبِهَا، وَتُحِيطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ، حَتَّى يَفْقِدَ الِاسْتِعْدَادَ لِلرَّشَادِ وَالْهُدَى.

ولا ينسى صاحب المنار-هنا-أن يلفت الانتباه: إلى ماوقع فيه- علماء الكلام- من جدل، وتنازع، نتيجة غفلتهم عن سنن الغواية، والضلال، حيث يقول: وَقَدْ غَفَلَ عَنْ هَذِهِ السُّنَنِ: عُلَمَاءُ الْكَلَامِ، فَطَفِقُوا يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ فِي خَلْقِ اللهِ الْكُفْرَ وَالضَّلَالَ لِلْإِنْسَانِ، حَتَّى يَكُونَ عَاجِزًا عَنِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ: هَلْ هُوَ جَائِزٌ مِنَ الْخَالِقِ عَقْلًا وَشَرْعًا وَوَاقِعٌ فِعْلًا ؟ أَمْ هُوَ مُسْتَحِيلٌ عَلَيْهِ، وَيُنَزَّهُ عَنْهُ، لِأَنَّهُ ظُلْمٌ يُنَافِي الْعَدْلَ وَالْحِكْمَةَ؟ وَأَيُّ الْآيَاتِ فِيهِ يَجِبُ تَأْوِيلُهَا ؟ وَالْحَقُّ إِنْ شَاءَ اللهُ مَا قُلْنَا. فَلَا تَأْوِيلَ.

-**الشَّاهِدُ التَّاسِعُ** قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]:

نَصٌّ فِي أَنَّ سُنَّتَهُ - تَعَالَى - فِي الْبَشَرِ: أَنْ يَتَفَرَّقُوا- بِمُقْتَضَى الْغَرِيزَةِ- إِلَى شُعُوبٍ وَقَبَائِلَ، وَيَكُونُوا مُخْتَلِفِينَ فِي الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ، وَالْمَنَازِعِ، وَفِي اللُّغَاتِ وَالْأَدْيَانِ وَالشَّرَائِعِ، وَمُتَنَازِعِينَ فِي الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ.

- الْفَصْلُ الثَّالِثُ: فِي سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ، وَالْعُمْرَانِ. وَفِيهِ بِضْعَةَ عَشَرَ شَاهِدًا:

-سُنَّةُ اللهِ فِي تَوْبَةِ الْأُمَمِ، مِنَ الذُّنُوبِ، كَالْأَفْرَادِ:

-**الشَّاهِدُ الْأَوَّلُ**:أَمَرَ الْقُرْآنُ الْأُمَمَ، كَالْأَفْرَادِ- بِاسْتِغْفَارِ الرَّبِّ، وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ- مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ- فِي الْآيَاتِ: [3 -52 -90-] ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[هود: ٣]،﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[هود: ٥٢]،﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود: ٩٠].

وَجَعْلُهُمَا سَبَبًا وَشَرْطًا لِمَا وَعَدْنَا بِهِ مِنَ التَّمْتِيعِ الْمَادِّيِّ، وَالْفَضْلِ الْمَعْنَوِيِّ فِي الْأُولَى، وَمِنْ إِدْرَارِ الْغَيْثِ، وَزِيَادَةِ الْقُوَّةِ فِي الثَّانِيَةِ، بِصَرَاحَةِ الْمَنْطُوقِ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ حَفْظِ النِّعَمِ، بِدَلَالَةِ الْمَفْهُومِ فِي الثَّالِثَةِ.

فَالْآيَاتُ الثَّلَاثُ:

- **بَيَانٌ لِسُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ:** وَهُوَ أَنَّ الصَّلَاحَ، وَالْإِصْلَاحَ: سَبَبٌ لِارْتِقَاءِ الْأَقْوَامِ، وَالْأُمَمِ وَحِفْظِهَا. كَمَا أَنَّهُ سَبَبٌ لِارْتِقَاءِ الْأَفْرَادِ. وَالْخِطَابُ هُنَا لِلْأَقْوَامِ، لَا لِلْأَفْرَادِ. وَمَا كُلُّ فَرْدٍ يُعَاقَبُ عَلَى ذُنُوبِهِ فِي الدُّنْيَا. وَلَكِنْ كُلُّ أُمَّةٍ تُعَاقَبُ عَلَى ذَنْبِهَا فِي الدُّنْيَا...

ثم يقول صاحب المنار تعقيبا على هذه السنة: وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ السُّنَّةُ مَعْرُوفَةً لِلْمُهْتَدِينَ بِالْقُرْآنِ- مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ -:

وَمِنَ الْآثَارِ الْمَرْوِيَّةِ عَنِ الْعَبَّاسِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّهُ لَمَّا قَدَّمَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَلَى نَفْسِهِ فِي صَلَاةِ الِاسْتِسْقَاءِ لِتَذْكِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — لِقُرْبِهِ، وَشَبَهِهِ بِهِ فَتَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ، كَانَ مِمَّا قَالَهُ الْعَبَّاسُ فِي دُعَائِهِ: اللهُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَمْ يُرْفَعْ إِلَّا بِتَوْبَةٍ. إِلَخْ.

أَمَّا كَوْنُ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ سَبَبًا لِانْحِطَاطِ الْأُمَمِ وَضَعْفِهَا وَهَلَاكِهَا، فَسَيَأْتِي فِي آخِرِ هَذَا الْفَصْلِ.

- ارْتِقَاءُ الْأُمَمِ بِإِحْسَانِ الْأَعْمَالِ وَإِتْقَانِهَا:

- **الشَّاهِدُ الثَّانِي**: قُلْنَا- فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا-: إِنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى - فِي الْآيَةِ السَّابِعَةِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]: فِيهِ إِرْشَادٌ إِلَى **سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ**. وَنَقُولُ هُنَا فِي بَيَانِهَا: إِنَّ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ هَذَا الْعِلْمِ: أَنَّ ارْتِقَاءَ الشُّعُوبِ فِي مَصَالِحِهَا الْقَوْمِيَّةِ، وَالْوَطَنِيَّةِ، وَفِي عِزِّهَا الدَّوْلِيَّةِ، هُوَ أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ لِإِحْسَانِ أَعْمَالِهَا، فِي أَسْبَابِ الْمَعَاشِ، وَالثَّرْوَةِ وَالْقُوَّةِ الْحَرْبِيَّةِ، وَالتَّكَافُلِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْمَصَالِحِ وَالْمُقَوِّمَاتِ الْعَامَّةِ لَهَا، وَلَا يَتِمُّ مَا ذُكِرَ إِلَّا بِالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ، وَالْأَمَانَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ. وَلَا تَكْمُلُ هَذِهِ: إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِاللهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

- عِقَابُ الْأُمَمِ لَهُ آجَالٌ طَبِيعِيَّةٌ:

-**الشَّاهِدُ الثَّالِثُ**: قُلْنَا أَيْضًا: إِنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى -: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ [هود: ٨]:

- **سُنَّةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ** - وَنَقُولُ هُنَا فِي بَيَانِهَا-: إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ السُّنَّةِ: أَنَّ هَذَا الْعَذَابَ لَهُ أَجَلٌ عِنْدَ اللهِ مَعْلُومٌ، وَزَمَنٌ فِي كِتَابِ نِظَامِ الْخَلْقِ مَعْدُودٌ. وَهُوَ: مَا يَبْلُغُ بِهِ ذَنْبُهَا حَدَّهُ فِي الْإِفْسَادِ...

-أَوَّلُ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ، وَالْمُصْلِحِينَ: الْفُقَرَاءُ:

-**الشَّاهِدُ الرَّابِعُ**: قَوْلُهُ - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]:

وَهُوَ نَصٌّ فِي **سُنَّةِ اللهِ- فِي السَّابِقِينَ: إِلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ** - وَكَذَا غَيْرُهُمْ، مِنَ الْمُصْلِحِينَ- كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ فِي هَذِهِ الْخِلَاصَةِ - وَتَتِمَّتُهُ فِي الشَّاهِدِ التَّالِي وَهُوَ:

- فَلَاحُ الْجَمَاعَاتِ وَالْأُمَمِ، بِتَكَافُلِ الْمُصْلِحِينَ فِيهَا:

-**الشَّاهِدُ الْخَامِسُ**: قَوْلُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي جَوَابِهِ لَهُمْ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [هود: ٢٩]مَبْنِيٌّ عَلَى:

- سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ- فِي الزَّعَامَةِ، وَالْعَصَبِيَّةِ - وَتَأْلِيفِ الْجَمَاعَاتِ، الَّتِي تُحْدِثُ الِانْقِلَابَاتِ، فِي الْأُمَمِ.... فَأَمَّا الرُّسُلُ- عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- فَقَدْ هَدَاهُمُ الْوَحْيُ إِلَى هَذِهِ السُّنَّةِ،كَمَا تَقَدَّمَ فِي بَيَانِ سُنَّتِهِ - تَعَالَى - فِي عَدَاوَةِ كُبَرَاءِ الدُّنْيَا، مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ لَهُمْ. وَأَمَّا زُعَمَاءُ الْأُمَمِ - فِي الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ- فَقَدْ هَدَتْهُمْ إِلَيْهَا- عَبْرَ التَّارِيخِ، وَالتَّجَارِبِ- إِلَى أَنْ دَوَّنَ عُلَمَاءُ فَلْسَفَةِ التَّارِيخِ: عِلْمَ الِاجْتِمَاعِ. وَفَصَّلُوا فِيهِ سُنَّتَهُ، فَعَمِلُوا بِهِ، وَكَانَ إِمَامُهُمْ-حَكِيمُنَا الْعَرَبِيُّ- ابْنُ خَلْدُونَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

– تَنَازُعُ رِجَالِ الْمَالِ، وَدُعَاةِ الْإِصْلَاحِ:

–الشَّاهِدُ السَّادِسُ: فِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ مَعَ قَوْمِهِ:

مَسْأَلَةٌ مِنْ أَهَمِّ مَسَائِلِ الِاجْتِمَاعِ فِي الْعَالَمِ الْمَدَنِيِّ، وَهِيَ: التَّنَازُعُ بَيْنَ رِجَالِ الْمَالِ، وَرِجَالِ الْإِصْلَاحِ، فِي حُرِّيَّةِ الْكَسْبِ الْمُطْلَقَةِ، وَتَقْيِيدِ الْكَسْبِ بِالْحَلَالِ، وَمُرَاعَاةِ الْفَضِيلَةِ فِيهِ....

وَمَا زَالَ التَّنَازُعُ الْمَالِيُّ: أَعْقَدَ مَشَاكِلِ الِاجْتِمَاعِ. وَزَعَمَ– بَعْضُ عُلَمَاءِ الِاقْتِصَادِ– أَنَّ: الْإِصْلَاحَ الْمَالِيَّ أَعْظَمُ أُسُسِ الْإِسْلَامِ...

– سُنَّتُهُ – تَعَالَى – فِي جَعْلِ الْعَاقِبَةِ لِلْمُتَّقِينَ:

–الشَّاهِدُ السَّابِعُ: قَوْلُهُ – تَعَالَى –: ﴿ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٩]: هُوَ الْأَسَاسُ الْأَعْظَمُ: **لِسُنَنِ الِاجْتِمَاعِ فِي فَوْزِ الْجَمَاعَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ** وَالشُّعُوبِ، وَالْأُمَمِ، فِي مَقَاصِدِهَا، وَغَلَبِهَا عَلَى خُصُومِهَا وَمُنَاوِئِيهَا. كَمَا أَنَّهُ هُوَ الْأَسَاسُ الرَّاسِخُ: لِفَوْزِ الْأَفْرَادِ فِي أَعْمَالِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، مِنْ مَالِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ،....

ولا ينسى صاحب المنار– هنا– أن يوجه نقده لعلماء الدين الذين وقفوا عند أقوال– بعض المفسرين المتقدمين– غافلين عن السنن الإلهية، حيث يقول: وَلَئِنْ سَأَلْتَ أَكْثَرَ عُلَمَاءِ الدِّينِ فِي الْأَزْهَرِ وَأَمْثَالِهِ – مِمَّنْ لَا بِضَاعَةَ لَهُمْ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ إِلَّا مِثْلَ تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ، وَمَا دُونَهُ، كَالْجَلَالَيْنِ، وَحَوَاشِيهِ، وَكَذَا تَفْسِيرُ الْأَلُوسِيِّ– الْجَامِعِ لِخُلَاصَةِ هَذِهِ التَّفَاسِيرِ – فَقُلْتَ لَهُمْ:

مَا مَعْنَى كَوْنِ " **الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** "؟ وَمَا التَّقْوَى الَّتِي جَعَلَهَا هَذَا النَّصُّ عِلَّةً لِكَوْنِ الْعَاقِبَةِ لَهُمْ، عَلَى قَاعِدَتِكُمْ فِي تَعْلِيقِ الْحُكْمِ عَلَى الْمُشْتَقِّ؟

لَيَقُولُنَّ أَوْسَعُهُمُ اطِّلَاعًا: إِنَّ التَّقْوَى فِعْلُ الطَّاعَاتِ، وَتَرْكُ الْمَعَاصِي. أَوِ امْتِثَالُ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي. وَأَنَّ اللهَ وَعَدَ هَؤُلَاءِ بِحُسْنِ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَهَذَا تَفْسِيرٌ مُجْمَلٌ مُبْهَمٌ يُمْكِنُ اخْتِصَارُهُ بِأَنْ تَقُولَ: الْمُتَّقُونَ: هُمُ الْمُسْلِمُونَ الصَّالِحُونَ.

وَمَاذَا عَسَى أَنْ يَقُولَ– قَارِئُو هَذِهِ التَّفَاسِيرِ عَلَى قِلَّتِهِمْ– غَيْرَ هَذَا، أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ. وَقَدْ قَصَّرَ كُلُّ مُؤَلِّفِيهَا فِيمَا يَجِبُ مِنَ الْبَيَانِ التَّفْصِيلِيِّ لَهَا، فِي تَقْوَى الْأَفْرَادِ، وَالْجَمَاعَاتِ، وَتَقْوَى الْأُمَّةِ ؟

فَإِنَّهُ لَمْ يُشِرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى مَعْنَاهَا الْعَامِّ، وَهُوَ اتِّقَاءُ كُلِّ مَا يُفْسِدُ الْعَقَائِدَ وَالْأَخْلَاقَ، وَالرَّوَابِطَ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ، وَتَحَرِّي مَا يُصْلِحُهَا بِهَدْيِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ مِنْ سُنَنِ اللهِ – تَعَالَى – فِي حَيَاةِ الْأُمَمِ وَمَوْتِهَا، وَقُوَّتِهَا وَضَعْفِهَا، وَبَقَاءِ دُوَلِهَا وَزَوَالِهَا، وَكَوْنُ هَذِهِ السُّنَنِ مُطَّرِدَةً فِي جَمِيعِ الشُّئُونِ الْعَامَّةِ، مِنْ مَنْزِلِيَّةٍ

وَمَدَنِيَّةٍ وَمَالِيَّةٍ وَحَرْبِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ، لَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَحْوِيلَ، وَلَا مُحَابَاةَ فِيهَا، بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ. وَبِهَذَا كُلِّهِ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ الْمَرْجُوَّةُ لَهُمْ فِي السِّيَادَةِ، وَالسَّعَادَةِ....

-نَهْيُ- أُولِي الْأَحْلَامِ- عَنِ الْفَسَادِ: يَحْفَظُ الْأُمَّةَ، مِنَ الْهَلَاكِ:

-الشَّاهِدُ الثَّامِنُ: قَوْلُهُ - تَعَالَى -:﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]: جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ- بَعْدَ بَيَانِ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ، بِظُلْمِهِمْ، وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ - لِلْإِعْلَامِ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمْ جَمَاعَاتٌ، وَأَحْزَابٌ، أُولُو بَقِيَّةٍ مِنَ الْأَحْلَامِ، وَالْفَضَائِلِ، وَالْقُوَّةِ فِي الْحَقِّ، يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، لَمَا فَشَا فِيهِمْ، وَأَفْسَدَهُمْ. وَإِذَنْ لَمَا هَلَكُوا.

فَإِنَّ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ فِي الْأَرْضِ: هُمُ الَّذِينَ يَحْفَظُ اللهُ بِهِمُ الْأُمَمَ مِنَ الْهَلَاكِ، مَا دَامُوا يُطَاعُونَ فِيهَا بِحَسْبِ سُنَّةِ اللهِ. كَمَا أَنَّ الْأَطِبَّاءَ: هُمُ الَّذِينَ يَحْفَظُ اللهُ بِهِمُ الْأُمَمَ، مِنْ فُشُوِّ الْأَمْرَاضِ، وَالْأَوْبِئَةِ فِيهَا. مَا دَامَتِ الْجَمَاهِيرُ تُطِيعُهُمْ فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ، مِنْ أَسْبَابِ الْوِقَايَةِ، قَبْلَ حُدُوثِ الْمَرَضِ. وَمِنْ وَسَائِلِ الْعِلَاجِ، وَالتَّدَاوِي بَعْدَهُ.

فَإِذَا لَمْ يَمْتَثِلِ الْجُمْهُورُ- لِأَمْرِهِمْ، وَنَهْيِهِمْ- فَعَلَ الْفَسَادُ فِعْلَهُ فِيهِمْ.

وهنا يشن صاحب المنار حملة شديدة على الوعاظ والفقهاء-من الخلف الجاهل-فيقول:

وَقَدْ فَهِمَ الْوُعَّاظُ، وَالْفُقَهَاءُ مِنْ خَلَفِنَا الْجَاهِلِ - مَا كَانَ يَفْهَمُهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنْ بَرَكَةِ الصَّالِحِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَحَفِظِ اللهِ الْأُمَمَ بِهِمْ — فَظَنُّوا: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمُ: الَّذِينَ يُكْثِرُونَ مِنَ الصِّيَامِ، وَالْقِيَامِ، وَقِرَاءَةِ الْأَوْرَادِ، وَالْأَحْزَابِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ - وَضَرَبَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ حَجَرٍ الْهَيْتَمِيُّ الْمَثَلَ بِقَوْلِهِ فِي الزَّوَاجِرِ-:

لَوْلَا أُنَاسٌ لَهُمْ وِرْدٌ يَقُومُونَا وَآخَرُونَ لَهُمْ سَرْدٌ يَصُومُونَا

لَدَكْدَكْتُ أَرْضُكُمْ مِنْ تَحْتِكُمْ سِحْرًا فَإِنَّكُمْ قَوْمُ سَوْءٍ لَا تُطِيعُونَا

كَلَّا. إِنَّ مِنْ أَصْحَابِ الْأَوْرَادِ: مَنْ يَقُومُ لَيْلَهُ بِوِرْدٍ، مِنْ تَشْرِيعٍ مُبْتَدَعٍ، هُوَ بِهِ عَاصٍ لِلَّهِ - تَعَالَى - لِعِبَادَتِهِ بِغَيْرِ مَا شَرَعَهُ، فَكَانَ مِمَّنْ قَالَ فِيهِمْ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ﴾ [الشورى: ٢١] أَيْ: بِهَلَاكِهِمْ. وَفِي الْحَدِيثِ: " رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ".

كَمْ مِنْ مُصَلٍّ هُوَ مِصْدَاقٌ لِحَدِيثِ: "مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا".

وَكَذَلِكَ كَانَ دَرَاوِيشُ مَهْدِيِّ السُّودَانِ، وَأَمْثَالُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْجَاهِلِينَ لِهِدَايَةِ الْقُرْآنِ، فَنَكَّلَ بِهِمُ الْإِفْرِنْجُ بِمُسَاعَدَةِ الْفَاسِقِينَ، مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى بِلَادِهِمْ. وَقَدْ عَلِمْنَا مِنْ أَخْبَارِ هَذَا الْمَهْدِيِّ: أَنَّهُ كَانَ عَلَى عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ فِي صَلَاحِهِ، وَلَكِنَّ قُوَّادَهُ لَمْ يَكُونُوا بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَصَلَاحُ دَرَاوِيشِهِ: لَا بَصِيرَةَ فِيهِ، وَلَا عِلْمَ.

كَلَّا إِنَّ الْمُرَادَ بِالصَّالِحِينَ- الَّذِينَ يَحْفَظُ اللهُ بِهِمُ الْأُمَمَ- هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥]: وَهُمُ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وَقَالَ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[النور: ٥٥]: - وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِيهِمْ قَرِيبًا -.

وَإِنَّ اللهَ لَا يَحْفَظُ الْأُمَمَ بِذَوَاتِهِمْ، وَبَرَكَةِ أَجْسَادِهِمْ، وَلَا بِعِبَادَاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ الْقَاصِرِ نَفْعُهَا عَلَيْهِمْ، بَلْ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَطَاعَةِ الْأُمَّةِ لَهُمْ.

نَعَمْ إِنَّ اللهَ لَا يُهْلِكُ الْأُمَّةَ كُلَّهَا- بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ- مَادَامَ فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَكِنَّهُ يُعَذِّبُهَا بِذُنُوبِهَا فِيمَا عَدَا ذَلِكَ- مِمَّا فَصَّلْنَاهُ فِي عِلَاوَةِ قِصَّةِ الطُّوفَانِ الرَّابِعَةِ-.

-الطُّغْيَانُ وَالرُّكُونُ إِلَى الظَّالِمِينَ سَبَبُ الْحِرْمَانِ مِنَ النَّصْرِ:

-الشَّاهِدُ التَّاسِعُ: قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ﴾ [هود: ١١٢]. وَقَوْلُهُ بَعْدَهَا:﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]:

فِيهِمَا مِنْ سُنَنِ اللهِ - تَعَالَى - فِي الِاجْتِمَاعِ: أَنَّ الطُّغْيَانَ وَالرُّكُونَ إِلَى الظَّالِمِينَ: مِنْ أَسْبَابِ هَلَاكِ الْأُمَمِ وَحِرْمَانِهِمْ مِنَ النَّصْرِ، عَلَى أَعْدَائِهِمْ. وَهَذَا يَشْتَرِكُ مَعَ الظُّلْمِ، فِي شَوَاهِدِهِ الْآتِيَةِ:

-الشَّوَاهِدُ: الْعَاشِرُ - الْخَامِسَ عَشَرَ- عَلَى إِهْلَاكِ الْأُمَمِ بِالظُّلْمِ: -فِي الْآيَاتِ 100 - 102 و112 و113 و116 و117-:

-أَوَّلُهَا فِي هَذَا السِّيَاقِ قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِرَسُولِهِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود: ١٠٠]

- وَالثَّانِيَةُ:﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ [هود: ١٠١]:

أَيْ بِإِهْلَاكِهِمْ. بَلْ أَنْذَرْنَاهُمْ عَاقِبَةَ ظُلْمِهِمْ. وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا عَامًّا، فَكَانَ هَلَاكُهُمْ عَامًّا. وَكَانَ أَكْبَرَ ظُلْمِهِمْ: الشِّرْكُ، فَكَانُوا يَدْعُونَ آلِهَتَهُمْ أَنْ تَدْفَعَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، فَاتَّكَلُوا عَلَيْهَا فِي دَفْعِ مَا أَنْذَرَهُمْ

الرُّسُلُ ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ [هود: ١٠١]. هَذَا مَعْنًى لَا يُكَابِرُ فِيهِ أَحَدٌ، يَدَّعِي التَّوْحِيدَ، وَالْإِيمَانَ بِالْقُرْآنِ.

وهنا أيضا نجد- صاحب المنار- يوجه نقدا لاذعا للجاهلين بعقائد القرآن، حيث يقول: وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْجَاهِلِينَ بِعَقَائِدِ الْقُرْآنِ إِذَا بَيَّنْتَ لَهُمْ مَا يُخَالِفُ تَقَالِيدَهُمْ مِنْهَا أَنْكَرُوهُ، وَأَوَّلُ مَا يُنْكِرُونَهُ أَسَاسُهَا الْأَعْظَمُ: وَهُوَ تَوْحِيدُ اللهِ، وَمَعْنَى الشِّرْكِ بِهِ مِنْهَا، إِذْ هُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ شِرْكَ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ عِبَارَةٌ عَنْ عِبَادَةِ أَصْنَامٍ وَأَوْثَانٍ مِنَ الْجَمَادِ- يَتَّكِلُونَ عَلَيْهَا- لِذَاتِهَا. فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ أَصْلَهُ- الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ، وَلَا سِيَّمَا الْمَيِّتِينَ مِنْهُمْ - وَاعْتِقَادُ تَصَرُّفِهِمْ فِي الْكَوْنِ، وَدُعَاؤُهُمْ فِي طَلَبِ النَّفْعِ، وَدَفْعِ الضُّرِّ، وَأَنَّ مِثْلَهُ، أَوْ مِنْهُ- مَا كَانَ يُحْكَى عَنْ مُسْلِمِي بُخَارَى- أَنَّ شَاهْ نَقْشَبَنْدَ: هُوَ الْحَامِي لَهَا، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ الدَّوْلَةُ الرُّوسِيَّةُ، الِاسْتِيلَاءَ عَلَيْهَا.

ثم ينتقل لبيان أن هذه السنن كانت معلومة —عند الصحابة والتابعين- فيقول في ذلك: إِنَّ عُلَمَاءَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةَ الْأَمْصَارِ الَّذِينَ وَرِثُوا لُغَةَ الْقُرْآنِ بِالسَّلِيقَةِ، وَسُنَّةَ النَّبِيِّ وَبَيَانَهُ لَهُ بِالِاتِّبَاعِ، كَانُوا يَفْهَمُونَ هَذِهِ السُّنَنَ الْإِلَهِيَّةَ فِي الْخَلْقِ وَيَهْتَدُونَ بِهَا، وَإِنْ لَمْ يَضَعُوا لَهَا قَوَاعِدَ عِلْمِيَّةً وَفَنِّيَّةً لِتَفْقِيهِ مَنْ بَعْدِهِمْ فِيهَا.

ثُمَّ زَالَتْ سَلِيقَةُ اللُّغَةِ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُوَلَّدِينَ، فَصَارُوا يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ بِقَوَاعِدِ الْفُنُونِ الَّتِي وَضَعُوهَا لِلُّغَةِ وَلِلدِّينِ، بِقَدْرِ مَعَارِفِهِمُ الْمَمْزُوجَةِ بِمَا وَرِثُوا وَمَا كَسَبُوا مِنَ الشُّعُوبِ الَّتِي اهْتَدَتْ بِالْإِسْلَامِ.

وَلَمْ يَكُنْ عِلْمُ الِاجْتِمَاعِ مِمَّا دَوَّنَهُ أَحَدٌ. فَلِهَذَا لَا نَرَى فِي تَفَاسِيرِهِمْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ السُّنَنِ الْخَاصَّةِ بِسِيَاسَةِ الْأُمَمِ، بَلْ تَنَكَّبُوا هِدَايَةَ الْقُرْآنِ فِيهَا، فَكَانَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ مَا نَشْكُو مِنْهُ وَنُحَاوِلُ تَلَافِيَهُ.

-**الشَّاهِدُ السَّادِسَ عَشَرَ**: فِي الِاخْتِلَافِ فِي الدِّينِ: تَرَى فِي الْآيَتَيْنِ-118 و119-:

- **بَيَانَ سُنَنِ اللهِ - تَعَالَى - فِي اخْتِلَافِ الْأُمَمِ فِي الدِّينِ** كَاخْتِلَافِهِمْ فِي التَّكْوِينِ وَالْعُقُولِ وَالْفُهُومِ، وَحِكْمَةُ جَعْلِهَا فِي خَاتِمَةِ السُّورَةِ: أَنَّهَا أَهَمُّ مَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ، وَهُوَ أَكْمَلُ هِدَايَةً وَهَبَهَا اللهُ لِلْإِنْسَانِ، لِتَكُونَ كَافِلَةً كَافِيَةً لَهُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، ذَلِكَ بِأَنَّ مَا قَبْلَهَا كُلُّهُ مِنْ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ الْمُبَيِّنَةِ- لِأَسْبَابِ فَسَادِ الْأَفْرَادِ، وَالْأُمَمِ- وَقَدْ أَرْشَدَهُمُ الْقُرْآنُ لِاتِّقَائِهَا، فَهُوَ جَامِعٌ لِوَصْفِ أَمْرَاضِ الْبَشَرِ كُلِّهَا وَلِوَصْفِ عِلَاجِهَا.

فَمَنْ آمَنَ بِهِ وَتَدَبَّرَهُ مِنَ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ الصُّغْرَى -الْبُيُوتِ وَالْفَصَائِلِ وَالْعَشَائِرِ-، وَالْكُبْرَى - الشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ- عَمِلَ بِهِ. وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَلِمَ مِنَ الْفَسَادِ وَالْهَلَاكِ، وَالْهَلَاكُ حَتْمًا....

وَإِنَّمَا الْبَلَاءُ الْأَكْبَرُ، وَالْمَوْتُ الْأَحْمَرُ، وَالْخَطَرُ الْأَسْوَدُ الْمُظْلِمُ، فَهُوَ: اخْتِلَافُ الشِّيَعِ، وَالْأَحْزَابِ فِي الدِّينِ، وَالزَّيْغُ عَنِ الْقُرْآنِ بِاتِّبَاعِ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ.

فَهَذَا الَّذِي أُشِيرُ إِلَيْهِ- فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ- بِحِرْمَانِ أَهْلِهِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]

وَالْمُرَادُ بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ فِي الدُّنْيَا: مَا وَعَدَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَاخْتَصَّهُمْ بِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ: مِنْهَا: مَا هُوَ فِي رَحْمَتِهِ الْمُطْلَقَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧﴾ [التوبة: ١١٧]

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]

وَمِنْهَا: مَا هُوَ خَاصٌّ بِرَحْمَتِهِ بِكِتَابِهِ الْأَخِيرِ، الَّذِي أَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ، وَأَتَمَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ، كَقَوْلِهِ فِيهِ: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس: ٥٧]

وَمِنْهَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِرَحْمَتِهِ بِرَسُولِهِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَهُوَ وَصْفُهُ - تَعَالَى - إِيَّاهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾[التوبة: ١٢٨]

فَهَذِهِ الرَّحْمَةُ الْخَاصَّةُ بِالْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ الْأَوَّلِ الْآخَرِ، وَبِكِتَابِهِ الْأَخِيرِ وَبِنَبِيِّهِ الْخَاتَمِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا تَتِمُّ لِأَفْرَادِهِمْ إِلَّا بِتَمَامِ الِاهْتِدَاءِ وَالِاتِّبَاعِ لِمَا كَلَّفُوهُ بِقَدْرِ الِاسْتِطَاعَةِ الشَّخْصِيَّةِ، وَلَا تَكُونُ لِجَمَاعَتِهِمْ - وَهِيَ الْأُمَّةُ - إِلَّا بِاعْتِصَامِهَا بِحَبْلِ اللهِ وَعُرْوَةِ الْوَحْدَةِ الْوُثْقَى، بِاجْتِنَابِ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنْهَا لِمَا نُهُوا عَنْهُ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْأُصُولِ الْقَطْعِيَّةِ مِنَ النُّصُوصِ وَالسُّنَّةِ الْعَمَلِيَّةِ، وَرَدِّ الِاخْتِلَافِ وَالتَّنَازُعِ فِي غَيْرِ الْقَطْعِيِّ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ إِلَى تَرْجِيحِ أُولِي الْأَمْرِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ مِنَ السِّيَاسَةِ وَالْقَضَاءِ، وَتَرْجِيحِ الْأَفْرَادِ فِي الْمَسَائِلِ الِاجْتِهَادِيَّةِ الْخَاصَّةِ.- وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذَا فِي مَوَاضِعِهِ-.فَالْحَقُّ فِيهِ ظَاهِرٌ.

وَلَكِنَّ تَنْفِيذَهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى وُجُودِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي أَمَرَنَا الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِاتِّبَاعِهَا وَعَدَمِ مُفَارَقَتِهَا قِيدَ شَعْرَةٍ، وَهِيَ جَمَاعَةُ -أُولِي الْأَمْرِ، وَأَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ - وَهُمُ الَّذِينَ يَثِقُ بِهِمُ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْأُمَّةِ، وَيَنُوطُ بِهِمُ الشَّرْعُ نَصْبَ الْأَئِمَّةِ (الْخُلَفَاءِ) وَالسَّلَاطِينِ عَلَيْهَا وَعَزْلَهُمْ - وَقَدْ فُقِدُوا مَنْ أُمَّتِنَا بِاسْتِبْدَادِ الظَّالِمِينَ، مِنْ مُلُوكِ الْعَصَبِيَّاتِ الْمُخْتَلِفَةِ- بَعْدَ أَنْ قَضَى عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ، وَتَبَرَّأَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِمَّنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَمِمَّنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ.

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُصْلِحِينَ وَضْعُ نِظَامٍ لِإِعَادَةِ حُكْمِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ بَسَطْنَاهُ فِي كِتَابِ (الْخِلَافَةِ أَوِ الْإِمَامَةِ الْعُظْمَى) [1].

(1) - تفسير المنار، الباب السادس، ص 235-249- بتصرف واختصار-.

سيد قطب يتحفظ على العلوم الإنسانية المقتبسة من الغرب:

تردد كثيرا فيما سبق — عند صاحب المنار- ذكره للعلوم الاجتماعية خصوصا، والعلوم الإنسانية عموما، والتي قطع الغرب فيها شوطا بعيدا- وكأنها مسلمات علمية، يمكن الاطمئنان إلى كل ماجاء فيها.

ومن ثم نرى سيد قطب- رحمه الله- يتحفظ على استنتاجات هذه العلوم حيث يقول:

إن اتجاهات " الفلسفة " بجملتها، واتجاهات " تفسير التاريخ الإنساني " بجملتها، واتجاهات " علم النفس " بجملتها - عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها - ومباحث " الأخلاق " بجملتها، واتجاهات دراسة " الأديان المقارنة " بجملتها، واتجاهات " التفسيرات والمذاهب الاجتماعية " بجملتها - فيما عدا المشاهدات والإحصائيات والمعلومات المباشرة، لا النتائج العامة المستخلصة منها، ولا التوجيهات الكلية الناشئة عنها -... إن هذه الاتجاهات كلها في الفكر الجاهلي - أي غير الإسلامي - قديماً وحديثاً، متأثرة تأثراً مباشراً بتصورات اعتقادية جاهلية، وقائمة على هذه التصورات، ومعظمها - إن لم يكن كلها - يتضمن في أصوله المنهجية عداءً ظاهراً أو خفياً للتصور الديني جملة، وللتصور الإسلامي على وجه خاص ! [1] ...

ثم يضيف إلى ذلك قائلا:

ويكفي أن نعلم أن الاتجاه التجريبي، الذي قامت عليه الحضارة الصناعية الأوروبية الحاضرة، لم ينشأ ابتداء في أوروبا، وإنما نشأ في الجامعات الإسلامية في الأندلس والمشرق، مستمداً أصوله من التصور الإسلامي وتوجيهاته، إلى الكون وطبيعته الواقعية، ومدخراته وأقواته.. ثُم استقلت النهضة العلمية في أوروبا بهذا المنهج، واستمرت تنميه وترقيه، بينما رُكن وترك نهائياً في العالم الإسلامي، بسبب بُعْد هذا العالم تدريجياً عن الإسلام، بفعل عوامل بعضها كامن في تركيب المجتمع، وبعضها يتمثل في الهجوم عليه من العالم الصليبي والصهيوني ...

ثم قطعت أوروبا ما بين المنهج الذي اقتبسته، وبين أصوله الاعتقادية الإسلامية، وشردت به نهائياً بعيداً عن الله، في أثناء شرودها عن الكنيسة، التي كانت تستطيل على الناس - بغياً وعدواً - باسم الله![2].

وكذلك أصبح نتاج الفكر الأوروبي بجملته - شأنه شأن إنتاج الفكر الجاهلي في جميع الأزمان في جميع البقاع - شيئاً آخر، ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات التصور الإسلامي. ومعادية في الوقت ذاته عداء أصيلاً للتصور الإسلامي.. ووجب على المسلم أن يرجع إلى مقومات تصوره وحدها، وألا يأخذ

(1) - معالم في الطريق لسيدقطب:112.

(2) - المستقبل لهذا الدين فصل: " الفصام النكد "

إلا من المصدر الرباني إن استطاع بنفسه، وإلا فلا يأخذ إلا عن مسلم تقي، يعلم عن دينه وتقواه ما يطمئنه إلى الأخذ عنه.

نموذج تطبيقي للتفسير بالسنن: ماجاء في تفسير سورة الفيل:

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده-رائد المدرسة العقلية في التفسير- في تفسيره للسورة في جزء عم [1]:وفي اليوم الثاني فشا في جند الجيش-جيش أبرهة- داء الجدري والحصبة..

قال عكرمة: وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب. وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث: إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام. وقد فعل الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله. فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه، وولوا هاربين، وأصيب الجيش، ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة، وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء. هذا ما اتفقت عليه الروايات، ويصح الاعتقاد به.

وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري، أو تلك الحصبة: نشأت من حجارة يابسة، سقطت على أفراد الجيش، بواسطة فرق عظيمة من الطير، مما يرسله اللّه مع الريح.

«فيجوز لك أن تعتقد: أن هذا الطير من جنس البعوض، أو الذباب، الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة: من الطين المسموم اليابس، الذي تحمله الرياح، فيعلق بأرجل هذه الحيوانات. فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه، فأثار فيه تلك القروح، التي تنتهي بإفساد الجسم، وتساقط لحمه. وأن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة، يعد من أعظم جنود اللّه، في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر. وأن هذا الحيوان الصغير - الذي يسمونه الآن بالمكروب - لا يخرج عنها. وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها.. ولا يتوقف ظهور أثر قدرة اللّه تعالى في قهر الطاغين، على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال، ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به، ولا على معرفة مقادير الحجارة، وكيفية تأثيرها.. فلله جند من كل شيء. [2]

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد.

«وليست في الكون قوة إلا وهي خاضعة لقوته. فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت، أرسل اللّه عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدري أو الحصبة، فأهلكته وأهلكت قومه، قبل أن يدخل مكة. وهي

(1) - في ظلال القرآن 7715/1.

(2) - في ظلال القرآن:1 /7716.

نعمة غمر اللّه بها أهل حرمه – على وثنيتهم – حفظا لبيته، حتى يرسل من يحميه بقوة دينه – صلى اللّه عليه وسلم – وإن كانت نعمة من اللّه حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت دون جرم اجترمه، ولا ذنب اقترفه.

«هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة. وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل – إن صحت روايته. ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل – وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسما – ويهلك، بحيوان صغير، لا يظهر للنظر، ولا يدرك بالبصر، حيث ساقه القدر. لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر!!».

هذا ما ذكره الإمام محمد عبده في تفسيره– للطير الأبابيل–وهي محاولة للتفسير، بحسب السنن الجارية، المعقولة، البعيدة، عن الخوارق، والغيبيات.

أما سيد قطب فله رأي آخر. وله استدراك على ما قاله الأستاذ الإمام، حيث يقول:

وتختلف الروايات هنا في تحديد نوع هذه الجماعات من الطير، وأشكالها، وأحجامها، وأحجام هذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها. كما أن بعضها يروي أن الجدري والحصبة ظهرا في هذا العام في مكة.

ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري، والحصبة، أقرب وأولى. وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات، فالطير هو كل ما يطير.

ويقول سيد قطب: ونحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الأستاذ الإمام – صورة الجدري أو الحصبة– من طين ملوث بالجراثيم، أو تلك التي جاءت بها بعض الروايات من أن الحجارة ذاتها، كانت تخرق الرؤوس والأجسام، وتنفذ منها وتمزق الأجساد، فتدعها كفتات ورق الشجر الجاف. وهو «الْعَصْفِ»..

لا نرى أن هذه الصورة، أو تلك أدل على قدرة اللّه، ولا أولى بتفسير الحادث. فهذه كتلك في نظرنا، من حيث إمكان الوقوع. ومن حيث الدلالة على قدرة اللّه وتدبيره. ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس، المعهودة المكشوفة لعلمهم، هي التي جرت فأهلكت قوما أراد اللّه إهلاكهم. أو أن تكون سنة اللّه قد جرت بغير المألوف للبشر، وغير المعهود المكشوف لعلمهم، فحققت قدره ذاك.

إن سنة اللّه ليست فقط هي ما عهده البشر وما عرفوه. وما يعرف البشر من سنة اللّه إلا طرفا يسيرا، يكشفه اللّه لهم بمقدار ما يطيقون، وبمقدار ما يتهيأون له، بتجاربهم ومداركهم، في الزمن الطويل. فهذه الخوارق –كما يسمونها – هي من سنة اللّه. ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهدوه وما عرفوه! ومن ثم فنحن

لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين لها – متى صحت الرواية – أو كان في النصوص، وفي ملابسات الحادث ما يوحي بأنها جرت خارقة، ولم تجر على مألوف الناس، ومعهودهم.

وفي الوقت ذاته لا نرى أن جريان الأمر، على السنة المألوفة، أقل وقعا ولا دلالة من جريانه على السنة الخارقة، للمألوف. فالسنة المألوفة هي في حقيقتها، خارقة بالقياس إلى قدرة البشر.. إن طلوع الشمس وغروبها خارقة – وهي معهودة كل يوم – وإن ولادة كل طفل خارقة – وهي تقع كل لحظة. وإلا فليجرب من شاء أن يجرب! وإن تسليط طير – كائنا ما كان – يحمل حجارة مسحوقة ملوثة بميكروبات الجدري والحصبة، وإلقائها في هذه الأرض، في هذا الأوان، وإحداث هذا الوباء في الجيش، في اللحظة التي يهم فيها باقتحام البيت..

إن جريان قدر اللّه على هذا النحو خارقة، بل عدة خوارق كاملة الدلالة، على القدرة، وعلى التقدير. وليست بأقل دلالة ولا عظمة، من أن يرسل اللّه طيرا خاصا، يحمل حجارة خاصة، تفعل بالأجسام فعلا خاصا في اللحظة المقررة.. هذه من تلك.. هذه خارقة. وتلك خارقة. على السواء..

فأما في هذا الحادث بالذات، فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة، وأن اللّه أرسل طيرا أبابيل غير معهودة – وإن لم تكن هناك حاجة إلى قبول الروايات، التي تصف أحجام الطير وأشكالها وصفا مثيرا، نجد له نظائر في مواضع أخرى، تشي بأن عنصر المبالغة والتهويل، مضاف إليها! – تحمل حجارة غير معهودة، تفعل بالأجسام فعلا غير معهود..

نحن أميل إلى هذا الاعتبار. لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة. ولكن لأن جو السورة، وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب. فقد كان اللّه – سبحانه – يريد بهذا البيت أمرا. كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمنا، وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة، تزحف منه حرة طليقة، في أرض حرة طليقة، لا يهيمن عليها أحد من خارجها، ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة، تحاصر الدعوة في محضنها. ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة، لجميع الأنظار في جميع الأجيال. حتى ليمتن بها على قريش بعد البعثة، في هذه السورة، ويضربها مثلا لرعاية اللّه لحرماته وغيرته عليها.. فمما يتناسق مع جو هذه الملابسات كلها أن يجيء الحادث غير مألوف، ولا معهود، بكل مقوّماته وبكل أجزائه. ولا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف، من الأمر في حادث، هو في ذاته وبملابساته مفرد فذ..

وبخاصة أن المألوف في الجدري، أو الحصبة: لا يتفق مع ما روي من آثار الحادث، بأجسام الجيش، وقائده. فإن الجدري أو الحصبة لا يسقط الجسم عضوا عضوا وأنملة أنملة، ولا يشق الصدر عن القلب.. وهذه الصورة هي التي يوحي بها النص القرآني: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾[الفيل: ٥].. إيحاء مباشرا قريبا.

ورواية عكرمة وما حدث به يعقوب بن عتبة ليست نصا في أن الجيش أصيب بالجدري. فهي لا تزيد على أن تقول: إن الجدري ظهر في الجزيرة في هذا العام لأول مرة. ولم ترد في أقوالهما أية إشارة لأبرهة وجيشه، خاصة بالإصابة بهذا المرض.. ثم إن إصابة الجيش على هذا النحو، وعدم إصابة العرب القريبين بمثله، في حينه تبدو خارقة إذا كانت الطير تقصد الجيش وحده، بما تحمل. وما دامت المسألة خارقة فعلام العناء في حصرها في صورة معينة لمجرد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر! وجريان الأمر على غير المألوف أنسب لجو الحادث كله؟! (1)

الاعتذار للمدرسة العقلية:

ثم يقول – صاحب الظلال: إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية، التي كان الأستاذ الإمام – رحمه اللّه – على رأسها في تلك الحقبة.. ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات، في تفسير القرآن الكريم، وأحداث التاريخ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف، من السنن الكونية.. فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة، التي تسيطر على العقلية العامة، في تلك الفترة. كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات، التي حشيت بها، كتب التفسير، والرواية. في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها، وموجة الشكّ في مقولات الدين إلى قمتها.

فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره، على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل. ومن ثم تجتهد في تنقيته من الخرافات والأساطير. كما تحاول أن تنشئ عقلية دينية تفقه السنن الكونية، وتدرك ثباتها واطرادها، وترد إليها الحركات الإنسانية، كما ترد إليها الحركات الكونية، في الأجرام والأجسام – وهي في صميمها العقلية القرآنية – فالقرآن يرد الناس إلى سنن اللّه الكونية، باعتبارها القاعدة الثابتة المطردة، المنظمة لمفردات الحركات والظواهر المتناثرة.

ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة، وضغط الفتنة بالعلم، من جهة أخرى، تركت آثارها في تلك المدرسة.

من المبالغة في الاحتياط، والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية، هو القاعدة الكلية لسنة اللّه. فشاع في تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده – كما شاع في تفسير تلميذيه الأستاذ الشيخ رشيد رضا، والأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي – رحمهم اللّه جميعا – شاع في هذا التفسير: الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق، إلى مألوف سنة اللّه دون الخارق منها، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه «المعقول»! وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبل الغيبيات.

(1) – في ظلال القرآن سورة الفيل.

ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية، الدافعة لمثل هذا الاتجاه، فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه، وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل. وهو طلاقة مشيئة اللّه، وقدرته من وراء السنن التي اختارها – سواء المألوف منها للبشر أو غير المألوف – هذه الطلاقة التي لا تجعل العقل البشري هو الحاكم الأخير. ولا تجعل معقول هذا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل ما لا يوافقه – كما يتكرر هذا القول في تفسير أعلام هذه المدرسة.

هذا إلى جانب أن المألوف من سنة اللّه، ليس هو كل سنة اللّه. إنما هو طرف يسير، لا يفسر كل ما يقع من هذه السنن في الكون. وأن هذه كتلك دليل على عظمة القدرة، ودقة التقدير..

وكل ذلك مع الاحتياط من الخرافة ونفي الأسطورة في اعتدال كامل، غير متأثر بإيحاء بيئة خاصة، ولا مواجهة عرف تفكيري شائع، في عصر من العصور!!!

لا تواجه النصوص بمقررات سابقة:

ثم يشير – صاحب الظلال – إلى قاعدة مأمونة في التفسير:

إن هنالك قاعدة مأمونة في مواجهة النصوص القرآنية، لعل هنا مكان تقريرها..

إنه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية، بمقررات عقلية سابقة. لا مقررات عامة، ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص. بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا. فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية، ومنها نكوّن قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعا فإذا قررت لنا أمرا فهو المقرر، كما قررته! ذلك أن ما نسميه «العقل» ونريد أن نحاكم إليه مقررات القرآن، عن الأحداث الكونية، والتاريخية، والإنسانية، والغيبية. هو إفراز واقعنا البشري المحدود، وتجاربنا البشرية المحدودة.

وهذا العقل وإن يكن في ذاته قوة مطلقة، لا تتقيد بمفردات التجارب، والوقائع. بل تسمو عليها إلى المعنى المجرد وراء ذواتها، إلا أنه في النهاية محدود بحدود وجودنا البشري. وهذا الوجود لا يمثل المطلق كما هو عند اللّه.

والقرآن صادر عن هذا المطلق فهو الذي يحكمنا. ومقرراته هي التي نستقي منها مقرراتنا العقلية ذاتها. ومن ثم لا يصلح أن يقال: إن مدلول هذا النص يصطدم مع العقل فلا بد من تأويله – كما يرد كثيرا في مقررات أصحاب هذه المدرسة–. وليس معنى هذا: هو الاستسلام للخرافة. ولكن معناه أن العقل ليس هو الحكم في مقررات القرآن. ومتى كانت المدلولات التعبيرية مستقيمة واضحة فهي التي تقرر كيف تتلقاها عقولنا، وكيف تصوغ منها قواعد تصورها ومنطقها، تجاه مدلولاتها، وتجاه الحقائق الكونية الأخرى..

للعلامة عبد الحميد الفراهي وجهة نظر أخرى:

لقد أطال الفراهي الكلام في تفسيره لسورة الفيل- وكانت له في ذلك تحقيقات، واستنباطات- تدل على تعمقه في فهم كتاب الله، ودراسته، بما لم يسبق إليه. ومن ثم سنقتبس ما نراه ضروريا مما جاء في تفسيره لهذه السورة:

يقول الفراهي: إن الخطاب في هذه السورة: متوجه إلى جميع من رأى هذه الواقعة، أو أيقن بها من طريق تواتر الحكاية، ممن رآها. وإن ظاهر هذه السورة يدل على حماية مكة وأهلها، عن عدوهم. والاستفهام ههنا ليس إلا للردع، والتنبيه، كما هو ظاهر. وذلك لابد أن يصرف إلى من ظهر منه تغافل عما استفهم. فينبه على ما علم.

فتبين مما قدمنا: أن السورة ليست بخطاب إلى النبي ﷺ. إنما أنزلت ليخاطب النبي بها قريشا كلها، على سبيل الانفراد. وفي اختيار صيغة الواحد: دلالة على أن كل امرئ منهم، يجب عليه أن يشكر ربه، ويذكره ويخافه كما يخاف العبد مولاه المنعم فيعبده، كما صرح به في السورة التالية. فإذا تبين ذلك فلابد من صرف كاف الخطاب في "ربك" إلى ذلك المخاطب.

عمود السورة وربطها بالتي قبلها والتي بعدها:

ذكر القرآن في السورة السابقة كل همزة لمزة مفتخر بماله، ذاهل عن مآله. فدعا عليه بالويل، وأنبأه بأنه ينبذ في الحطمة والنار الموقدة. ففي هذه السورة إشهاد على ما فعل بأمثاله حين اعتمدوا على قوة شوكتهم واجترؤوا على الله، لأنهم قد علموا في كتبهم حرمة هذا البيت العتيق. وقد فعلوا مثل ذلك بالمسجد في أرشليم عنادا لليهود، كما فعل اليهود بهم.- وليس هذا موضع تفصيله-.

فذكر القرآن- هذا الغني المختال، هذه الواقعة- التي شهدها بعينه، فإنه من كفرة قريش. والظاهر أنه أبو لهب، المتمسك ببدعاته مع أتباعه، الذين أبطلوا حرمة البيت، بفسقهم وطمعهم -كما ذكرنا في تفسير سورة اللهب، وغيرها-. فكأنه قيل له:

ألم تر كيف حطم الله أمثالك وجعلهم كعصف مأكول، أما شهدت حالهم ومآلهم إذ نضحهم الرب عن هذا البيت المحرم، الذي منه شرف قريش، ورزقهم وأمنهم. وقد علمت أنك لم تغلب عليهم بقوتك، بل بنصر من الله الذي هو رب هذا البيت. فأدخل في قلوبهم الرعب، وبدل حصباء أصابتهم: حصباء أذابتهم، فطردهم عنك، إذ ترى جلهم: صرعى بين عينيك، أو حولك. ثم أرسل عليهم عصائب طير أبابيل، تأكل لحوم الأفيال والأقيال عبرة لك، ونعمة عليك، فطهر واديك من نتن الجيف العظام. فكفاك مؤنة كبرى، وأراك بذلك آية أخرى. فكيف أنت بعد مشاهدة هذه النعمة، والنقمة تكفر بربك، وتستهين بشعائره ؟

وأما قولنا إن هذه الطير: كانت تأكلهم، فيأتيك بيانه،- في الفصل التاسع إلى الحادي عشر، فاتضح مما قدمنا أن عمود هذه السورة: تمهيد وجوب الشكر لله تعالى، بذكر ما جعل لأهل مكة خصوصا والعرب عموما، من العز والكرامة، بما حماهم وبلدهم، ببركة هذا البيت المحرم. فجعل لذكر هذه النعمة سورة كاملة. فلم يذكر ما يتعلق بها من الحكم، أي: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾[قريش: ٣].

فجعله في سورة تالية، لكي يعرفوا منزلة هذه النعمة، التي فضلهم بها على سائر الأمم، حتى بني إسرائيل- فإنهم أسروا، وقتلوا، ومزقوا كل ممزق-. وكذلك أخذ عنهم بلدهم وهيكلهم، ودمر وحرق- ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝١٠٥﴾[البقرة: ١٠٥]فيعطي حسب علمه وحكمته، فليشكروا له، ولا يغتروا بنعمته.....

إجمال القصة حسبما نص عليها القرآن

اعلم أن قصة أصحاب الفيل لها إجمال وتفصيل. أما مجملها فهو الذي نص عليه القرآن. وأما تفصيلها فأخذوها من الروايات المختلفة، المتفاوتة في الصحة والضعف. والمفسرون يذكرون تفاصيل القصص، من غير بحث عما ثبت وعما لم يثبت. وهذا ربما يعظم ضرره، وربما يصرف عن صحيح التأويل. فلابد أولا من الفرق بين المنصوص، وبين المأخوذ من الروايات. ثم لابد ثانيا من التمييز، بين ما ثبت، وبين ما لم يثبت. فنذكر أولا ما نص عليه القرآن: فاعلم أن القرآن: لم يفصل في قصة أصحاب الفيل، بأنهم جاءوا لهدم الكعبة، ومن كانوا ومن أين جاءوا. لأن الواقعة كانت على غاية الاشتهار، حتى إن العرب اتخذتها مبدأ تاريخهم، وذكروها في أشعارهم.- وسيأتيك بعضها في الفصل العاشر-. والسكوت عن التفصيل أبلغ بيانا، لدلالته على غاية الشهرة. وإصدار الكلام بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ [الفيل: ١]يناسب هذا الأمر. فإنه لا يخاطب به إلا فيما لا يخفى على أحد، كأنه رآه كل من يخاطب به، وإن لم يره بعينه. وهكذا ينبغي عند طلب الإقرار بشئ -كما هو معلوم عند أهل العربية-. ثم إذا أخرج الكلام هذا المخرج: لا يذكر فيه إلا ما كان مشهورا معلوما، فالتفصيل لا يليق به.....: أن القرآن صرح بكيد أصحاب الفيل- وما زعموا من مجئ أبرهة- ليس فيه كيد. إنما هو مجاهرة بالقدرة، وإرغام لجميع العرب. وأما على ما يستنبط من الروايات الموثوق بها، فيثبت منه كيده من وجوه:

الأول: إنه جاء في الأشهر الحرم إذ ظن أن العرب تمسك فيها عن القتال وحمل السلاح.

والثاني: إنه أراد دخول مكة، حين تخلو من أهلها، وهم مع سائر العرب في حجهم.

والثالث: إنه أراد الهجوم عليهم خاصة- في أيام التشريق- والعرب حينئذ: إما واقفون بمنى. أو مسرعون إلى أوطانهم، بعد طول الشعث، والكلال، والسآمة. وعلى هذا فانظر كيف ضلل الرب تعالى كيده:

-إذ حبس جيشه ببطن محسر.

-وإذ جعل للعرب سلاحا، من حجارة "المحصب ".

-وإذ أرسل عليهم: حاصبا، من السماء.

فاتضح مما ذكرنا أن أهل مكة دافعوا أصحاب الفيل عن بيت الله، ورموهم بالحجارة، ولا مانع لهم عن ذلك. وإن ما ذكروا من حلم أبرهة، ورفعة قدره: يبطله المنقول، والمعقول، والقرآن. والحمد لله.

- رمي أصحاب الفيل بالحجارة وكونها من الآيات العظام:

لا شك أن رمي أصحاب الفيل بالحجارة كانت من الآيات العظام، على عظيم منزلة الكعبة، والبعثة المحمدية. فإن نبينا ﷺ ولد في هذا العام. ولكن عظمة هذه الآية: ليست في كونها عجيبة، ونادرة، بعيدة عن العادة.

بل إنها جاءت حسب سنة الله تعالى في إنزال آياته.

فإن من ينظر في مجارى الخوارق: يجد أن الله تعالى- لا يترك جانب التحجب، في الإتيان بها- كما هي سنته في سائر ما يخلق. لأن حكمته: جعلت لنا برزخا، بين عالمي الغيب، والشهادة. وسن لنا التشبث بالأسباب، مع التوجه إلى ربها، ليبقى مجال للامتحان، والتربية لأخلاقنا. فالمؤمن يضمحل عنه غمام الأسباب. والكافر يبقى في ظلماتها غير خارج منها. فبإجراء الخوارق- على سنة سائر الخلق- يجعلها واسطة لفهم أمره، الذي هو قوام كل خلق، كما قال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

ولذلك لا ترى للخوارق: اسما على حدة. فإن الله تعالى يسميها: الآيات- كما يسمي سائر مظاهر قدرته آيات-. غير أنه ربما يسميها "**آيات بينات**"- نظرا إلى العامة - وإلا فعند أولى البصيرة: كلها بينات.

هذا - وبسط القول- في كتاب "عيون العقائد" [1].

فإن كنت موقنا بأن الله تعالى: هو المتصرف في العالم، وملائكته ينفذون كلماته. وكل شئ من الخلق يجري حسب أوامره- على سنن حكمته- كنت أهلا للنظر، والتأمل، في آيات الله، لتزداد خشية وحكمة.

فاعلم أن لهذه- واقعة الفيل- نظائر في القرآن، والصحف....

(1) - القائد إلى عيون العقائد، مطبوع.

الأول: ما وقع في غزوة بدر. فإن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء، فاستقبل بها قريشا، ثم قال: "شاهت الوجوه" ثم نفحهم بها وقال لأصحابه: "شدوا" [1] فلم يبق كافر إلا شغل بعينه، كما جاء في سورة الأنفال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال: ١٧].

فجعل الله تعالى رمى النبي سببا ظاهرا، لما رماهم، حتى شغل كل واحد منهم بعينه. فكان هناك رميان: رمى من النبي رأوه، و ورمي من الله تعالى لم يروه، ولكن رأوا أثره.- ولذلك جاء النفي، والإثبات معا-.

وكذلك في هذه السورة. كانت قريش ترميهم بحجارة- ينفحونهم بها عن الكعبة - فجعلها الله حجابا- لما أرسل على أصحاب الفيل من، الحجارة من السماء-. وكما نسب الله تعالى الرمي- في بدر- إلى نفسه، في قوله:

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فهكذا ههنا: نسب إلى نفسه- أنه جعلهم كعصف مأكول- . فلا شك أنها كانت من الآيات البينات. فإن منافحة قريش كانت أضعف من أن تفل هذا الجيش، فكيف يحطمهم، حتى صاروا كعصف مأكول.

الاستدلال بكلام العرب على أن الرمي كان من السماء والريح:

قد مر في الفصل السادس: أن أسلوب الكلام- في هذه السورة- يدل على أن واقعة الفيل: كانت مما علمته العرب، واستيقنته. فلم يذكرها القرآن بتفاصيلها، لعدم الفائدة فيه. وإنما أراد به: إقامة الحجة عليهم، كما ذكرهم بوقائع الأمم المهلكة.

ثم يذكر تصديق ذلك من أشعار العرب، ويستدل بها على صورة الواقعة. فإنهم شهدوا الواقعة بأعينهم.- وهذه الأبيات- مذكورة في سيرة ابن هشام، وكتب أخر.....

فإن تأملت فيما مر- من كلام العرب- وجدت الذين شهدوا الواقعة: ذكروا- الطير، وحصب الحجارة- معا. لكنهم لم ينسبوا "الحصب" إليها. بل نسبوه إلى حاصب، وساف. و"الحاصب" يستعمل للهواء والريح الشديدة، التي ترمي بالحصباء، والسحاب الذي يرمي بالبرد، و الثلج [2]:

ذكر الله عذاب قوم لوط، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [القمر: ٣٤].

(1) - انظر ابن هشام 2: 203.

(2) - انظر لسان العرب (حصب).

وقال المفسرون فيه: أي ريحا تقلع الحصباء لقوتها. وفي حديث على ﷺ قال للخوارج: "أصابكم حاصب" [1].

وقال أهل اللغة في تفسيره: "أي عذاب من الله، وأصله رميتم بالحصباء، من السماء" [2].

ثم إنهم نسبوه إلى "ساف".- ومحال أن يحمل هذا اللفظ على الطير-. فإن السافي: يستعمل للريح، التي تذرى الغبار، والورق اليابس [3]. وهذا الغبار أيضا يسمى: "سافيا"- من السفي، وهو الخفة-. والطير: لا تحمل الغبار بالمنقار، والأظفار، وتذريه. فلا سبيل لإطلاق "السافي" على: الطير.

ثم إنهم مصرحون بأن أصحاب الفيل فروا، وولوا سراعا. فلو نفذت الحجارة النازلة، لهلكوا حيث كانوا. وأمر الريح في ذلك اليوم كان عجيبا، فكان حريا بالذكر. ولذلك ترى "ذا الرمة": ذكره وصوره - كما مر في الفصل السابع-.

وبالجملة: فلابد أن الله تعالى رماهم بالحصباء، والغبار من السماء، والهواء. كما رمى قوم لوط، فأصابت أجسامهم من كل جهة. وكان ذلك بتصريف ملائكة الله، وهذا هو المراد بجنود الله. وبذلك جاء الإشهاد في القرآن، حيث قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١﴾ [الذاريات: ١]، وأيضا: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١﴾ [المرسلات: ١].- كما بينا في تفسير سورة الذاريات-.

فإن قيل: إنهم لم يذكروا: أن الطير كانت تأكلهم، قلنا: قد جاء ذكر ذلك كناية وصراحة، في روايات عن ابن عباس، وسعيد بن جبير [4] ﷺ. وأما الشعراء فكثيرا ما يكتفون بالكناية عن التصريح. وبالإجمال عن التفصيل.

وقد ذكر بعضهم أنه رأى طيرا. ومعلوم عند العرب- أن سباع الطير كانت تجتمع على مصارع القتلى-. وربما استدلوا بذلك على وقوع القتل، كما استدل عمرو بن أمية على قتل أصحاب الرجيع [5].

وأن شاعرهم ربما يصف جيشا عظيما، فيذكر أن الطير- تصحبه لعلمها بكثرة القتلى - لما للحيوانات من الفراسات، ولكثرة ما جربن.

---

(1) - وفي لسان العرب (حصب): "وقيل حاصبا أي ريحا تقلع الحصباء لقوتها".

(2) - لسان العرب (حصب).

(3) - لسان العرب (حصب).

(4) - انظر الطبري 30: 192.

(5) - قال ابن اسحاق: "فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر، فقالا: إن لهذه الطير لشأنا. فأقبلا لينظرا، فإذا القوم في دمائهم" ابن هشام 2: 185.

ففي ذكر الطير مع جيش: غناء عندهم عن ذكر أكلها إياهم. ومجيء هذا الصنف من الطير، وأكلهم مما لا شك في وقوعه، فهو أولى بالمصير إليه. فإنه لا يخفى أن هذا الجيش الثقيل المدلهم، بحبشانه العظام، وأفياله الضخام، كان كقطعة ليل مظلم، في بياض قيعان العرب. ولم تكن الطير الجوارح: رأت مثل ذلك، فجلب العقبان، والرخم القشاعم، من صحارى أفريقية -كما يدل عليه ما روى من أنها خرجت من البحر [1].

- فاجتمعن عليهم محلقة فوقهم.

فإن قيل: فهذا أمر وقع حسب العادة، فلم يكن حريا بالذكر. قلنا: قد ذكر الله تعالى: إهلاك قوم نوح، ولوط، وعاد، وثمود، بأسباب عادية. ولا شك إن في ذلك لآيات على رحمته ونقمته.

وقد أكثر في القرآن من ذكر آياته في اختلاف الليل والنهار، وتصريف الرياح والسحب، وتقدير الشمس والقمر. ولا شك أنها أمور تجري حسب العادة. فكما ذكر هذه الأمور: ذكر إهلاكه أصحاب الفيل، وأنه جعلهم طعمة لطير أبابيل، وإن في ذلك لآية ظاهرة. فإنه تعالى منع بلده المحرم، وأهل البلد، بما صب على أعدائه من الحصباء، والتراب، وطهر جوار مكة- من جيف الصرعى- بما أرسل عليهم من طير أبابيل تأكلهم.

ثم فيه آية عظيمة على مولد النبي الذي بشرت به الكتب الأولى.

أسباب صارفة عن التأويل الراجح:

لا يخفى أن التفصيل الذي اشتهر من قصة أصحاب الفيل صار سدا دون التأويل الراجح. فبعد ما دللنا على خطأ ما اشتهر نذكر بعض أسباب هذه الشهرة، وأيضا ما انضم إليها من أمور أخر مما صرف عن التأويل الصحيح. فإن لكل شئ سببا، ولابد من ذكر هذه الأسباب، ليتضح وهنها، وهي ستة.

أما الأول- فإنهم ظنوا أن الخطاب في السورة إلى النبي ﷺ، فلم يمكنهم تأويل كلمة: ﴿تَرْمِيهِم﴾ [الفيل: ٤]إلى الخطاب، فإن النبي ﷺ لم يكن يرميهم. ولكنا بينا في الفصل الثاني أن الخطاب ههنا إلى أفراد أهل مكة. وكلمة ﴿تَرْمِيهِم﴾ حال عن المجرور في "عليهم"، أو جملة مستأنفة. والمعنى على الحالية يكون: ألم تر أيها المخاطب كيف أرسل ربك عليهم طيرا أبابيل حال أنت ترميهم بالحجارة. وعلى الاستئناف يكون: كنت ترميهم بحجارة، فجعلهم الرب كعصف مأكول. والمآل واحد مع فرق لطيف بين الأسلوبين. فإن الحال تشير إلى إسراع الطير الخاطفة وسرعة هلاكهم برمي الحجارة. والاستئناف يدل على كبر الأثر. فإن

(1) - انظر الطبري 30: 192، وابن كثير 4: 555.

حجارة من طين لا يتوقع منها صيرورتهم كعصف مأكول. ولعل من لم يمارس كلام العرب يستبعد هذين التركيبين من جهة النحو. فنذكر ما سيقال على كلا التركيبين في ذكر السبب الثاني والثالث.

أما الثاني- فعسى أن يتوهم أن الحال إنما تبين هيئة الفاعل أو المفعول، والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ [الفيل: ٣] إنما هو مجرور، لا فاعل ولا مفعول. فنقول: إنما مراد النحويين أن الحال يبين هيئة الشئ عند حدوث أمر، والحدوث يعبر عنه بالفعل. فإذا وجدوا الحال عن غير الفاعل أو المفعول فزعوا إلى تقديرات شتى. وحقيقة الأمر أن مجئ الحال عن المجرور ذائع شائع، كما دل عليه القرآن وكلام العرب. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾[ق: ٤٤] ف "سراعا "حال عن الضمير المجرور في "عنهم"......

وأما الثالث - فعلى تأويل ﴿تَرْمِيهِم﴾ إلى الاستئناف- عسى أن يتوهم أن مقتضى المعنى-: أن يؤتى بالماضي، و﴿تَرْمِيهِم﴾ مضارع. فنقول: نعم. ولكن ﴿تَرْمِيهِم﴾: أصله: كنت ترميهم.

- وحذف الأفعال الناقصة قبل المضارع- أسلوب عام، وله مواقع، لا يحسن فيها إلا الحذف، - كما بيناه في كتاب الأساليب-. وأما ههنا فنقتصر على بعض الأمثلة، من القرآن، وكلام العرب: قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝﴾[الحاقة:٧]. أي فلو كنت هناك- أيها المخاطب- لظللت ترى القوم الخ. وقال متمم بن نويرة:

تقول ابنة العمرى: مالك بعدما أراك قديما ناعم الوجه أفرعا [1].

أي بعد ما كنت أراك.... فتبين أنه لا إشكال في تأويلنا- سواء جعلت ﴿تَرْمِيهِم﴾: حالا، أو استئنافا. ولا بأس باحتمال تركيبين- عند اتحاد المعنى-.

وأما الرابع- فإن رمي الطير الحجارة كان أعجب إلى النفوس، وأبين خرقا للعادة، فاشتهر بين الناس. فإن الجمهور يخرون على العجائب صما وعميانا، ويظنون البحث عنها والأخذ بأوثق الروايات فيها، خلاف التقوى. وقد علمت أن المعجزة لا تلزمها النكارة والندرة، بل الحمل على النظائر أولى. وقد علمنا أن موسى عليه السلام ذرا الرماد بيده، ومحمد عليه الصلاة والسلام رمى الحصباء إلى وجوه الكفار بيده؛ ومع ذلك كانتا آيتين عظيمتين. وقد بينا أن الخوارق تنزل تحت حجاب.

وأما الخامس- فإن بعض الذين شاهدوا الواقعة: ذكروا الطير، والحجارة معا. فتوهم بعض السامعين: أن الطير هي التي رمت. ويمكن أيضا أن بعض الشاهدين أنفسهم- لم يفهموا إلا أن الطير رمتهم - فذكروا حسبما ظنوا. وعذرهم بين، فإن رمى أهل مكة: لم يكن جديرا بما رأوا من الآثار، على الأعداء. فأيقنوا

(1) - جمهرة أشعار العرب: 753.

برمي من السماء. ولم يروا في السماء: إلا طيرا أبابيل، فنسبوا هذا الرمي إليهن. ثم من سمع بهذه الرواية: حمل الآية عليها. ولا شك أن حمل ذلك على رمي من السماء- في حجاب رمي العرب-: أولى، كما مر في الفصل الثامن.

أما السادس- فإن الوضاعين: افتروا أخبارا كاذبة، فيما جرى بين أبرهة، وعبد المطلب. واعتمد عليها المفسرون- مع غاية وهنها من جهة السند، والدراية -كما مر، لعدم مبالاتهم بالتنقيب في القصص. فلما ركز في قلوبهم أن أهل مكة- فروا عن حماية الكعبة، إلى شعف الجبال متحرزين عن جيش أبرهة- صار ذلك سدا عن حمل" ترميهم": على الخطاب. ولم يبق لهم إلا أن يقولوا بأن فاعل "ترميهم": هو الطير.

وأما السابع- فإن كلمة: ﴿تَرۡمِيهِم﴾ متصلة بكلمة: ﴿طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾، فتبادر إلى أفهامهم أن ضمير الفاعل: راجع إلى الطير. وترك المتبادر- إنما يقع بعد النظر والتأمل-. وإنما يتحشمون التأمل- إذا رأوا إشكالا ظاهرا - وليس ههنا إشكال ظاهر. فاشتهر هذا التأويل مع بعده- بعد النظر في الأمور، والتأمل فيها-. هذا، والله تعالى أعلم[1].

(1) - تفسير سورة الفيل، لعبد الحميد الفراهي.

خاتمة:

ولعله من المستحسن أن نختم هذا البحث بهذه الكلمة- لصاحب الظلال- عن المنهج الإلهي.. والإبداع الإنساني، حيث يقول:

المنهج الإلهي...والإبداع الإنساني:

إن المنهج الإلهي ليس عدوا للإبداع الإنساني. إنما هو منشئ لهذا الإبداع وموجه له الوجهة الصحيحة.. ذلك كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض. هذا المقام الذي منحه اللّه له، وأقدره عليه، ووهبه من الطاقات المكنونة ما يكافىء الواجب المفروض عليه فيه، وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه، ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون، ليملك الحياة والعمل والإبداع.. على أن يكون الإبداع نفسه عبادة للّه، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام، والتقيد بشرطه في عقد الخلافة. وهو أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضى اللّه.

فأما أولئك الذين يضعون المنهج الإلهي في كفة، والإبداع الإنساني في عالم المادة، في الكفة الأخرى.. فهم سيئو النية، شريرون، يطاردون البشرية المتعبة الحائرة، كلما تعبت من التيه والحيرة والضلال، وهمت أن تسمع لصوت الحادي الناصح، وأن تؤوب من المتاهة المهلكة، وأن تطمئن إلى كنف اللّه... وهنالك آخرون لا ينقصهم حسن النية ولكن ينقصهم الوعي الشامل، والإدراك العميق..[1]

هؤلاء يبهرهم ما كشفه الإنسان من القوى والقوانين الطبيعية، وتروعهم انتصارات الإنسان في عالم المادة. فيفصل ذلك البهر وهذه الروعة في شعورهم بين القوى الطبيعية والقيم الإيمانية، وعملها وأثرها الواقعي في الكون وفي واقع الحياة ويجعلون للقوانين الطبيعة مجالا، وللقيم الإيمانية مجالا آخر ويحسبون أن القوانين الطبيعية تسير في طريقها غير متأثرة بالقيم الإيمانية، وتعطي نتائجها سواء آمن الناس أم كفروا. اتبعوا منهج اللّه أم خالفوا عنه. حكموا بشريعة اللّه أم بأهواء الناس![2]

هذا وهم.. إنه فصل بين نوعين من السنن الإلهية- هما في حقيقتهما غير منفصلين-. فهذه القيم الإيمانية: هي بعض سنن اللّه في الكون، كالقوانين الطبيعية، سواء، بسواء. ونتائجها مرتبطة ومتداخلة. ولا مبرر للفصل بينهما، في حس المؤمن، وفي تصوره..

(1) - من مقدمة في ظلال القرآن: 16/1.

(2) - من مقدمة في ظلال القرآن 17/1.

وهذا هو التصور الصحيح الذي ينشئه القرآن في النفس، حين تعيش في ظلال القرآن. ينشئه وهو يتحدث عن أهل الكتب السابقة، وانحرافهم عنها. وأثر هذا الانحراف في نهاية المطاف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٦٥ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٥ - ٦٦].

وينشئه وهو يتحدث عن وعد نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح: ١٠ -١٢]..

وينشئه وهو يربط بين الواقع النفسي للناس، والواقع الخارجي، الذي يفعله اللّه بهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١].. (1)

إن الإيمان باللّه، وعبادته على استقامة، وإقرار شريعته في الأرض... كلها إنفاذ لسنن اللّه.

وهي سنن ذات فاعلية إيجابية، نابعة من ذات المنبع، الذي تنبثق منه سائر السنن الكونية، التي نرى آثارها الواقعية بالحس، والاختبار.

ولقد تأخذنا في بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية، حين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية: يؤدي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية.. هذا الافتراق قد لا تظهر نتائجه في أول الطريق. ولكنها تظهر حتما في نهايته.. وهذا ما وقع للمجتمع الإسلامي نفسه.

لقد بدأ خط صعوده: من نقطة التقاء القوانين الطبيعية في حياته، مع القيم الإيمانية. وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما. وظل يهبط ويهبط، كلما انفرجت زاوية الافتراق، حتى وصل إلى الحضيض، عند ما أهمل السنن الطبيعية، والقيم الإيمانية جميعا..

وفي الطرف الآخر: تقف الحضارة المادية اليوم. تقف كالطائر الذي يرف بجناح واحد جبار، بينما جناحه الآخر مهيض، فيرتقي في الإبداع المادي، بقدر ما يرتكس في المعنى الإنساني، ويعاني من القلق والحيرة، والأمراض النفسية والعصبية، ما يصرخ منه العقلاء هناك.. لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج اللّه، وهو وحده العلاج والدواء.

(1) - من مقدمة في ظلال القرآن: من 16-17.